يومِيّات بَرْهُوم البُلشُفيّ

د. خالد تركي

2008

يومِيّات بَرْهُوم البُلْشُفيّ

د. خـالـد تـركـي

إصدار: دار رؤى للترجمة والنشر
حيفا 2008

الإهداء

إلى جميع الرّفاق الشيوعيّين
والجبهويين الّذين صدقوا
وصادقوا وعاهدوا وصبروا
وصابروا ورابطوا أبدًا على هذا
الطّريق القويم دون أن يُغيّروا أو
يُبدّلوا طريقهم، مهما كانت الرّياح
الآتية، عاتية، ليكونوا عاتين على
العواتي. فصونوا هذا البيت،
صونوا سنديانتنا الحمراء.

مقدّمة الناشر

سـرّنا كثيرًا في "رؤى ترجمة ونشـر" المسـاهمة في تحرير ونشـر هـذا الكتاب التوثيقي، متميّز النكهة والمضمون. فهو يقدّم لنا حيفا في سـيرة برهوم البلشـفي، وعبر فصول من نوافذ الذاكرة الحيّة، لدى من صنعوا، وبالممارسـة، حصّة هذه المدينة في مسـيرة بقاء الجماهير العربية في وطنها.

لقد جـاء قرار الكاتب رصْـد تلك الفصول من خلال أحـداث ميدانية شـعبيّة، وصور تمزج بين العـام والخاص، وليس مـن داخل برودة أيـة بروتوكولات، كأنما ليعلن لقرّائـه أيّ خندق قد اختار. وهو خيار تسجيل تلك السـنوات وقوفًا في خندق المستضعفين؛ أولئك الذين لا تتسـنّى لهم كتابة التاريخ فـي العادة، بكون هذه المهمّة متروكة لـ "الأقوياء".

مع ذلك، فإن المواقف التي صنعها مناضلون ومناضلات، عرب ويهود، قبضـوا على الجمر الأحمر، بلون رايتهم الأممية، متّحدين متحدّين، هـي بطولات حقيقيـة تعيد صياغة مفاهيم القـوة. وهي تلك التي مـا كانت لتقـوم يومًا بمعزل عن الحق، قوّة الحـق. وكم كان نضال

الشيوعيين الحيفاويين وأصدقائهم عادلاً ومناصرًا للحق؛ بدءًا بحق الباقيـن مـن عرب حيفـا بالعيش الكريـم في وطنهـم، وحق جميع أهـل المدينة بالعيش في مناخ مُصاغٍ من قيم المسـاواة والسـلام والعدالة.

وهكـذا، تروح عدسـة الكاتب تتنقّـل من صدام مع أقطـاب وأعوان السـلطة هنـا، إلى ليلـة جرى فيهـا التخطيط والتحضيـر لنضال أو لـردّ نضالي هناك، فمبادرة لإقامة نشـاط ثقافـي أو رياضيّ، وكل هذا من خلال إفسـاح كامل فضاء منصّة الكلمة للصنّاع الحقيقيين للحـدث. هذا التنقّل المتأني بين مـا يصحّ اعتباره أقوى وأدقّ ملامح شخصية حيفا النضالية بعد نكبة 1948، لا يكتفي بتقديم عيّنات أو نماذج، بل يسـلّم القارئ قطعة نادرة زاهية من الفسيفساء الملوّنة بصنوف الكفاح، وتسـتحقّ تبوُّأ الصدارة فـي مذكرات حيفا، وذاكرة حيفا الأصيلة.

إن هذا الكتاب، الذي نُشـرت فصوله علـى صفحات جريدة "الإتحاد"؛ أعتق وأعرق المعالم الباقية في هذا الوطن من عهد ما قبل النكبة، يصدر في ظروف معقّدة. فكابوس الحروب والاحتلال والتمييز لا يزال مخيّمًا على هذه البلاد. وهو الكابوس الذي لن يتبدّد إلا بمواصلة درب ونهـج هؤلاء الذين يرصـد الكاتب مآثرهم. وهنا بالضبط يكتسـب الكتـاب راهنيّـة واضحة، فهو يعود إلى التاريخ ليقـدّم للقارئ معيَنًا كفاحيًا لا ينضب، وكأنه يخاطبهم: فلنظلّ ننهل من هذا المعيَن في حاضرنا، لأجل مستقبلنا.

إن "رؤى ترجمة ونشـر" ستكون سـعيدة بالمساهمة، مستقبلاً، في كل إصدار من هذا القبيل، لجعل صفحات تاريخنا المنير ترى النور.

المقدّمة

قال أبو الطّيّب المتنبّي:

وإذا أتتك مذمّتي من ناقصٍ فهي الشّهادة لي بأنّي كامل

"عـرب جيّـدون" عنـوان كتـاب تداولته أيـدي القـرّاء في السّـنتين الأخيرتين، وطبعًا لم يكُن الشّـيوعيّون هـم المقصودين، بل كانوا النّقيض حسب ما رأته المُخابرات الإسرائيليّة والسّلطات، فالجيّدون هم أولائك الّذين تعاملوا مع السّلطة وتآمروا على أبناء شعبهم، حيث كان الشّـيوعيّون في كلّ قريـة ومدينة من قرانا ومدننا الهدف الّذي صوَّب هؤلاء "العرب الجيّدون" سـهامهم إليهم، فوشَـوا بهم وتتبّعوا نضالهم وجرأتهم وشجاعتهم وتحدّيهم فزادهم ذلك غيْظًا لأنّ ذلك يُغْضِب أسيادهم، فأبلغ بعضهم السّلطة أنّ هذه الحانوت في قريته مكان لاجتماع الشّيوعييّن وجريدة الاتّحاد موجودة في ذلك الدّرج.

هـذا نعرفه جميعًا ونعتزّ أنّنا كُنّا كشـيوعييّن "العرب السّـيّئين" في عيْني السّـلطة. ولكـي يعرف الجميع مآثـر الشّـيوعييّن، كوادرهم

الشّـعبيّة الّتي كانت وما تزال كخليّة النّحل تعمل بدأب ونشاط، دون خـوف أو تـردّد، يقومون بنشـرِ أفكار القيادة والحـزب في كلّ مكان غير آبهين بما ينتظرهم من سـجن أو نفـي أو عقاب أو عدم إعطاء التّصاريح وغير ذلك من ممارسات السّلطة الجائرة. لكي يعرف الجميع هذا، كان لا بُدّ من كتابة ما اختزنته ذاكرة الشّـيوعييّن في سـنوات الحكم العسـكري ومصادرة الأراضي وخنق الحُرّيّـات والرّقابة على صحافة الحزب وأدبيّاته، فجاءت "يوميّات برْهوم البُلْشُـفيّ"، باكورة أعمال د. خالد تركي، الّتي أبدع فيها فنقل واقع نضال الشّيوعييّن في منطقة حيفا بصدقٍ ومباشرة من أبطاله الحقيقييّن، ممثّلة ببرهوم البلشـفي الّذي اختير كي يكون رمزًا لكلّ الشّيوعييّن الشّرفاء الّذين ضحّوا بكلّ شـيء وصمـدوا رغم كلّ محـاولات التّهجيـر والتّصفية والمُعاناة الحياتيّة اليوميّة.

واكبتُ مسـيرة كتابة "يوميّات برْهوم البُلْشُـفيّ" مـن ولادة الفِكرة حتّى اكتمالهـا في هذا الكتاب الّذي أرى فيه تَمَيُّزًا وبسـاطة وصِدقًا وقصّة شـعب لا حزب فقط، شـعرْتُ مع قـراءة كلّ حلقة من حلقات هذه اليوميّات بالاعتزاز والفخر لأنّ شـعبنا الأبيّ، الفلسـطيني الّذي اجترح المعجِزات في نِضاله الطّويل، أنجبَ هؤلاء الشّـيوعييّن الّذين مـع رفاقهم اليهود صمدوا وناضلوا ومكّنـوا بنضالهم الّذي لا يعرف الكلل ولا الملل أبناء شـعبنا من البقاء في وطنهم الّذي لا وطن لهم سواه.

برهوم البلشفي ورفاقه الّذين كان الهمّ الفلسطيني والهمّ الطّبقي والاجتماعـي شـغلهم الشّـاغل، بعـد عمل يومـيّ مضـنٍ، كلّ في مهنتـه الّتي يعتاش منها ويوفر لقمة العيش لأبناء عائلته، يوزّعون أدبيّات الحزب خاصّة الإتّحاد، يشاركون في المظاهرات والاجتماعات والمعـارك الكفاحيّـة، يقفون كالبنيـان المرصوص يشـدّ بعضهم

أزر بعـض، فيحمون اجتماعات حزبهـم بعضلاتهم وبأعلامهم الّتي كانـت تتحوّل عصيًـا وقت الحاجة لصـدّ عدوانيّة السّـلطة وأعوانها وكلّ مـن يحاول التّطـاول على قياديي الحزب الّذيـن كانوا يقودون نشـاطات حزبنا وشـعبنا، يتحدّون بخطاباتهم وبأفكارهم السّـلطة وأعوانهـا، يزرعون في أبناء شـعبي هـذه البلاد الأمل بالمسـتقبل ويؤكّدون بفكرهم الماركسيّ اللينينيّ أنّ النّصر حتمًا آتٍ وان الظّلم والاستغلال والقهر لا محالة زائلٌ.

في كلّ صفحة من "يوميّات برْهوم البُلْشُفيّ" نشهد صفحة مُشرقة من تاريخ حزبنا الشّيوعيّ صفحة سطّرتها كوادر الشّيوعييّن، قاعدة الهرم العريضة التي كانت ولا تزال راسخة تضرب جذورًا عميقة في هـذه الأرض الأبيّة، هذه القاعدة الّتي كان برهوم ورفاقه في أنحاء الوطـن، لبناتهـا المتراصّة، الّتي كانت تُفشـل كلّ محاولة اعتداء أو تطاول على مكتسـبات هذا الشّعب، يقومون بالمهمّات دون أن يُفكّر رفيق منهم أن ينشـر اسمه أو أن يُصفَّق له أو يُمْتدح على ما قام به من عمل مشَرّف ومن نضال لا يتوقّف، لم يُفكّر أحدهم بذلك لأنّهم رأوا فـي ما يقومون به صوْنًا للكادحين والمظلومين من الشّـعبيْن، عربًـا ويهودًا، لذا كانت هذه اليوميّات بدايةً، آمل أن يكون لها امتداد في بقيّـة المناطق، لأنّهـا تمحورت في منطقة حيفـا. ونحن نعرف أنّ المئـات بل الآلاف من رفـاق الحزب، قاعدة الهـرم، يختزنون في ذاكرتهم آلاف الأعمال البطوليّة، الّتي نريد لها أن تنتقل من الذّاكرة إلى صفحـات الإتّحاد أو إلى كتب لتُثري تاريخنـا لأنّ هذا التّاريخ هو التّاريخ اليومي لنضال حزبنا، وهو يُكمِّل التّاريخ المكتوب الّذي سُجِّل خلال سـنوات طويلة على صفحـات الإتّحاد الّتي تابعت وباسـتمرار نشـاط قياديي حزبنا ومُمثّليه في الكنيست والهستدروت والنّقابات المهنيّـة والسّـلطات المحليّـة، الّذين عانـوا الاضطهـاد والمُلاحقة

والإبْعـاد والاعتداء الّذي وصل حدّ محاولات القتـل الجبانة كما حدث لرفيقنا ماير فلنر بعد خطابه إثر نكسـة العام 1967 في الكنيسـت. وهـو يكمل تاريخ رفاقنا الّذين رفعوا قضايا شـعبنا على كلّ منصّة وعلى كلّ منبر في البلاد وخارجها كتوفيق طوبي وتوفيق زيّاد وماير فلنـر وإميل توما وحنّـا نقّارة وغيرهم من القياديّـن الّذين نجلّهم ونقدّرهم.

"يوميّـات برْهوم البُلْشُـفيّ" تطرّقت إلى جوانـب مختلفة من نضال رفاقنـا ومن الكفـاح اليهودي العربي، بشـكل واقعي بسـيط، لكن يعكس جوهـر النّضال الطّبقـي الأممي، ويؤكّـد أنّ ماهيّة الصّراع كانـت ولا تزال بين المسـتغِلّين والمسـتضعَفين وبين المسـتغِلّين والرأسـماليّة ويؤكّد أنّ مناهضة الاسـتعمار والاستغلال هو الكفاح اليوميّ والمثابر. فأثناء توزيع منشـور ضدّ زيارة فوستر دالاس بعد الحـرب العدوانيّـة الأمريكيّة علـى كوريا الديمقراطيّة في سـنوات الخمسـين، لاحقت الشّـرطة الرّفاق أثناء توزيعهم المنشور فقامت الرّفيقة اليهوديّة روتي بأخذ المناشـير وخبّأتها في صدرها ولم تجد سـوى برميل القمامـة تختبئ فيه حتّى زوال الخطـر، وبهذا خلّصت الرّفاق من المأزق. الحادثة رغم بساطتها، لها معانٍ كبيرة.

لقـد ضحّى الرّفاق بمصادر رزقهم أحيانًا من أجل مبادئهم وصونها. فقصّة برهوم حين أخذ إجازة مرضيّة لمدّة أسـبوع كي يُشـارك في دورة تثقيفيّة للحزب، انتهت باكتشـاف مدير قسـم البريد الّذي كان يعمـل فيه ذلـك صدفة، وعند عـودة برهوم وجد كتـاب الفصل قد سـبقه إلى البيـت. لا أريد هنا الخوض في هذا، فعشـرات المعلّمين الدّيمقراطيّـن فُصِلـوا مـن التّدريـس بسـبب انتمائهـم لحزبهم ولشـعبهم، ورغم ذلك اسـتمرّوا في حمل نبـراس الحُريّة ومقارعة السّلطة وعملوا في أيّ عمل كي لا يرضخوا للسّلطة وأعوانها..

اليوميّات تعُجّ بعشرات المواقف البطوليّة لرفاقنا، فقد تعدّدت أساليب السّلطة في استفزاز رفاقنا، وتعددت أساليب كوادر حزبنا وشبيبتنا في الرّدّ عليها وردّ اعتداءاتهم إلى نحورهم، وعلى سبيل المثال لا الحصر، أثلج صدري ما حدث حين قامت عائلة عربيّة من أعوان السّلطة بفتح باب مكتب محامي الأرض المناضل حنّا نقّارة ووضع مريض يحتضر داخل مكتبه، حيث قام الرّفاق بنقل المريض بهدوء وبحذر إلى غرفة مجاورة لمكتب محامي البقاء والإباء واستدعوا الإسعاف، وبهذا أفشلوا مخططات السّلطة لتوريط أحد قادة شعبنا.

كلّ كلمة وكلّ جملة في هذه المذكّرات ثمينة وقيِّمة. فحين أردْتُ أن أختار بعض جواهرها لأُغني مقدّمتي هذه وقفتُ محتارًا متردّدًا لأنّني أدركْتُ مدى الظّلم الّذي سيلحق بالأحداث الّتي لم أُشِر إليها في هذه المقدّمة. فهي لا تقلّ أهميّة عن سِواها التي حظيت بشرفِ الظّهور هنا، عزيزي القارئ، قبل أن تَلِجَ إلى لجّة "يوميّات برْهوم البُلْشُفيّ" وتسبر أغوارها، فعُذرًا.

فهنيئًا لد. خالد تركي على هذا الانجاز الأدبي الرائع وإلى مزيد من العطاء والإبداع في مؤلفات قادمة.

اسكندر عمل - حيفا

ما بعد المُقَدِّمة

لا أدري كيف بـدأتُ كتابة اليوميّات ولم أعـرف الحافز الذي حرّضني على كتابــة ذكريات قصّها عليّ والدي أبو خالــد مرارًا. ما أعرفه هو أنّنــي أردْتُ مــن خلال كتابتــي لليوميّات أن ابتعِد عــن كتابة مُجرّدة لذكريات إنســان ورفيــق وأخ وصديق وعزيز ومهجــة قلبٍ، ألا وهي ذكريات والدي.

لــم أرِدْها لوالــدي فقط، ولم أضعْهــا تحت عنوان يوميّــات إبراهيم تركي، حتّى لا يكون الاسم محصورًا بوالدي وحَصرًا لوالدي. أردْتُ أن يكون اسم برهوم مجازيًّا، لأنّ برهوم يمكنه أن يكون أيّ رفيق من رفاق الحزب الشّيوعي، أيّ رفيقٍ من رفاق الكدح والعمل والدّفاع عن العامــل والمرأة والأرض والعرض والمســكن والبيت، وأيّ رفيق من رفاق الحزب الّذين ناضلوا ضدّ الاحتلال أينما كان وفي أيّ وقت كان، وأيّ رفيــق من رفاق الحزب الّذين اشــتركوا في توزيع أدبيّات وكلمة الحزب، بعد يــوم عمل مضنٍ، من الإتّحاد والغد والجديد والدّرب وزو هديرخ وكول هعام أو توزيع المناشــير في مناسبات نضاليّة رسميّة أو طارئة أو إلصاق ملصقات ثوريّة على أنواعها وحســب مناسباتها، وأيّ رفيــق مــن رفــاق حراســة وحماية مبانــي الحزب ومؤسّســاته

ومؤتمراتــه، الرّفاق الذين صانوا ومــا زالوا يصونون الحزب والجبهة مــن أيّ ظالم إذا ظلم أو حاســد إذا حســد في هذه البــلاد الواقعة ما بين السّــماء المرفوعة والأرض الموضوعة، والّتي كُتبَ عنها الكثير وعُرِّفت بالأرض المقدّســة، لكــنّ كُتِبَ عليها أن تبقى تســبح بالدّم وترقص في حلقاتٍ، رقصةَ الموت.

أردْتُ منها ســرد ســيرةٍ جامعةٍ لرفيق ما زال قلبه ينبض عطاءً وحُبًّا وعِشْقًا لرفاقٍ شيوعيّين صدقوا وصادقوا وعاهدوا وصبروا وصابروا ورابطوا أبدًا على هذا الطّريق القويم.

أردْتُ منها ســردَ سيرةِ رفيقٍ ما زال شــريانه وشرايين رفاقه تنبض شــجاعةً ورُشْــدًا وحُبًّا وعشْــقًا لوطن مُغْتَصَبٍ وشعبٍ سُــلبَت حرّيّته ولحزبٍ شــيوعيٍّ مدافعٍ جبّارٍ دون كلــلٍ أو مللٍ كثُر المُتطاولون عليه للنّيل منه فاشلين حتمًا.

أردْتُ سردَ سيرةِ رفيقٍ لم ينضب عطاؤه وعطاء رفاقه الزّاخر والزّاهر وأملــه وأملهم بالنّصر الآتي لا محالة، مهما كبُرت وعظُمت التّحدّيات ومهما كانت الرّياح الآتية عاتية، ليكونوا عاتين على العواتي.

أردْتُ ســردَ سيرةِ رفيقٍ من رفاقٍ عاهدوا حزبهم وشعبهم ووطنهم، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا، لأنّ الحزب عوّدنا، وتعوّدنا أن نراه ونحن واثقون منه، أنّه بعد كلّ مرحلة ظالِمة ومُظلِمة تُلِمُّ به، كان يخرج منها شيوعيًّا منتصِبًا شامِخًا عزيزًا وقويًّا أو يزيد، مُنْبعِثًا كانبعاث طائر الفينيق من بين الرّماد.

أردْتُهــا يوميّــات رفيقٍ وأيّ رفيق مــن رفاق قاعدة الهَــرَم التّنظيميّ الحزبيّ، فهل تكون قمّةٌ ورأسٌ للهَرَم دون قاعدة متينة؟ وكي يكون رأسُ الهَرَم ثابتًا معطاءً قويًّا صامِدًا وَشابًّا علينا أن نحميهِ من الهَرَم والشّــيخوخَة، ليكون دائم الثورة والتّطــوّر والتّجدّد والانبعاث. وكيف

ذلك؟

الجـواب جاهـز وعليه أن يكون قيـد التنفيذ البارحة قبـل اليوم! هو التّثقيـف الحزبيّ، النّظـري والعملي، التّنظيمـي والتّنفيذي، ليكون سـلاحًا يزيدنا قناعـةً وثباتًـا وإيمانًا وعزمًـا وأملاً بعدالـة قضايانا الطّبقيّة والعمّاليّة والقوميّة والاجتماعيّة.

القناعـة والإيمـان كنزٌ لا يفنى، يزيـدان الرّفيق قـوّة وصمودًا على المبدأ، لبلوغ الهدف المنشود، حيث أنّ الإيمان القويّ والثّابت يُدْخِلان الجمل من خُرْم الإبرة أو حتى يسـمحان لكَ بالمسير على وجه البحر وكأنّك تمشـي البطحـاءَ، وبين لُجَجِـهِ دون الغرق، لتُصبـح اللجّاوي الّذي لا يخشى الصّعاب ولا البحرَ الهَدّار كسور عكّا أو يُعلِّمانِك العومَ كسـمكة تسـبح عكس التّيّار، فإن قـلّ الإيمان أو تزعزع أو شـكّكْتَ بالهـدف، تفشـل وتغـرق أو حتّى يسـحَبُك التّيّـار وبالتّالـي تصبحُ كالباقـي دون أيّ فـرق أو مُمَيِّـز وتفقد طابعَك وصفاتـك وميزاتك وخصوصيّتك كالغُراب الّذي أراد محاكاة الحجلة في تبختُرِها. وتكون المأساة عظيمة لنهاية وخيمة.

أردْتُ من هذه اليوميّات أن أكتب كلمة وفاء وعهد لبرهوم البُلْشُـفيّ، وحزبـه وجبهته، شـاكرًا إياهم جميعًا على هَدْيهـم لي ولغيري من الرّفـاق على هذا الطّريق الّـذي لولاهم ما كُنّا لِنهتَـدي إليه وما كُنّا أقوياء.

أردْتُهـا كلمة تقدير وشـرف وعزّ وشُـكر للسّـالفين وكلمـة تثقيف وتعريـف للنّاشـئين على الّذيـن حافظوا على الكرامـة والإباء وعِزّة النّفس لشـعبٍ بقي فـي وطنه بعد احتلاله ولـم تُرهِبْهُ يد البطش والإرهاب والمصادرة.

إنّ الوصـول إلى الهدف لا يكون بالاسـتجداءِ أو الاسـترحامِ لأنّهما لا

يُجديان نفعًا ولا يكــون بوَضْعِ أَنْفَسِ الثياب عند رُكبتَيْ الإله زَفْس، ليشــفعَ، من موقعه المسؤولَ عن جميع الآلهة، عند الإله آغنور أحبّ الأربــاب إلى الشَّــرّ، ليوصيه آمِــرًا أن يكفَّ ويُبعِد عنهم شــرَّه وبهذا يتفادى القومُ غضب الأشرار.

فالحــقّ يُســترَدّ ويُنتزَع من فم الأســد وبلوغ الهدف المنشــود يكون بخير العمــل والأمل وإنّ التمنّي لتحقيق الأماني شــيء جميل لحلم رائع لكنّــه ناقص إن لم يكن مقرونًا بالمثابــرة والمواظبة والبأس، فماً قاله أبو الطّيّب المتنبّي قبل مئات السّنين ينفعُنا حتّى في أيّامنا هذه:

وما نَيْلُ المطالبِ بالتّمنّي ولكن تؤخَذُ الدُّنيا غلابا

والغلبــة حقٌّ لأهلِ الحقِّ ونحــن أهلُ حقٍّ وأهلٌ للحــقّ، ويحقّ علينا الحقّ.

د. خالد تركي - حيفا

1

كان برهوم تلميـذًا في الصّفّ الثّاني ثانوي، في الكليّة الأسـقفية، فـي حيفا، الواقعة بين شـارع مـار يوحنّا القدّيس، نزلـة الكلداوي، وبين طريق أللنبي المأفون الّذي تآمر مع من تآمر، على بيع وتسليم وتدنيس كلّ ما هو مقدس في الوطن.

كان ذلك في العام الّذي عُرِف وعُرِّفَ لاحقًا بِعام النّكبة.

كانت حيفا مطوّقةً بإحـكام من كلّ الجهات، عدا منفذًا واحدًا، منفذ الهروب! فقـد كان الهدف من الخطّة، السّـيطرة على حيفا "نظيفة" من سكانها العرب (من دون وجع رأس). ولم يكن للعرب حولٌ ولا قوةٌ إلاّ باللّه القويّ الجبّـار، والهروب من المصير الغامض إلى المجهول، بناءً على طلبٍ من الجيوش العربية لترك البلاد لسبعة أيّام يقومون خلالهـا بترتيـب الأمـور وطرد الغـزاة وعندهـا يعـود النّازحون إلى بلادهم. وبالطّبع، فالأمـور لم تترتّب إلى يومنا هذا ولم تنتهِ الأيام السّـبعة بعد.لم يعرفوا أنّ الحـولَ والقوّةَ والاتّكال على اللّه يجب أن تكون مقرونةً بالإيمان والإصرار والفَلاح وخير العمل.

تذكّـر برهـوم يوم خروجـه من حيفا مـع عائلته أنّه نسِـيَ حقيبته المدرسـيّة في بيتـه، في شـارع ياقوت، فلمّـا عاد ليسـتعيد "كنزه وملكه" قرطاسـيّته، رغم معارضة أمّه، وجد أنّهم قد سـرقوا أعزّ ما يملـك، فبكـى بُكاءً مرًّا. لكـن دون جدوى. وعَلِم بعدهـا أنّ البُكاء لا يُجدي نفعًا.

حيـن ترك برهوم وعائلته حيفا متّجهين إلـى الجليل، في طريقهم إلى لبنان .. إلى وطن التّشـرّد واللجوء، إسـوةً بباقي أبناء شـعبهم، وجد نفسـه وعائلته في بيت جن الجليلية الجليلة، وحلّوا ضيوفًا في بيوت الشّيخ حسين صلالحة، أبي مالك والشّيخ عبد اللّه أبي عبسيّ، أبي شـفيق، فقد حال هذان الشّـيخان الجليليّان الجليلان دون وقوع برهوم وعائلته في سجلّ اللاّجئين وشرك مخيّمات اللجوء القسري.

قال لهم الشّيخ أبو مالك: ياللي بيصير عليكو بيصير علينا. مصيرنا وطريقنا مشـترك، فنحن شـعب واحد ولنا وطن واحد غالٍ وليس لنا سواه.

وكان للشّيخين الجليلين الجليليّين فضلٌ كبيرٌ في بقائه وعائلته في موطنهم، وعليهم للشّـيخين دين عظيم لن ينسوه أبدَ الدّهر ولبيت جـن مكان خاصّ ودافئ في كُلّ قلـب نابض وخافق من قلوب الآباء والأبناء والأحفاد ..

كان برهوم يتيم الأب، وقد توفى العادل القادر على كلّ شيء والده، ليلة العشاء السّري قبل النّكبة بثلاث سنوات، قضى نحبه وفي فخذِهِ الأيمـن رصاصة أصابته يـوم إعلان الإضراب العام، عشـيّة ثورة الـ 36، وبعدها تولّت والدته تربيتهم.

كان يُحـدّث والدتـه وهم فـي طريقهم إلـى الجليل، عن مدرسـته ومشـاغباته الشّـقيّة. ففي أحد أيّامه المدرسـيّة، حيـن أراد وأترابه

أن ينتهي الــدّوام كي يخرجوا للّعب، وكانت لعبتهم المفضّلة كباقي أبنــاء جيلهم، كرة القدم، صفّر أحــد تلاميذ الصّفّ، الأمر الّذي أزعج المدرّس، فطالبهم بمعرفة المصدر.

كان تلاميذ الصّفّ كتلة واحدة تحفظ أسرارها وتحافظ على بعضها البعض. عندما ســأل المدرّس عن "الجانــي" قيل له: إنّه أجير الفرن الّــذي يعمــل عند أبــي محمّد صاحب الفــرن الأبيض، قرب كنيســة الكاثوليك.

كان أجيــر الفرن يجمع من بيوت الحيّ أطباق العجين الخامر، لينقله للمَخبز على درّاجته، لخبزه وإرجاعه إلى البيوت خبزًا محمّرًا شهيًّا.

عندما لم يقتنــع المدرّس بقصّتهم، رفع دعوتــه للمدير، الذي جمع الطّلاب ليخطب بهم محذّرًا، مُنذِراً ومتوعّدًا، حتّى يأخذ منهم اعترافًا لكنّــه خرج من تهديده ووعيده خالي الوِفــاض. فأصدر قراره الجائر بالعقــاب الجماعــي إذ أمــر بتركيــع جميع طــلاّب الصّفّ في ســاحة المدرسة المُزفّتة حديثاً يوميًّا ولمدّة أسبوعين.

صحيح أنّ العقاب كان قاســيًا، لكنه أعفاهم من الدراســة والتّحضير اليومي. بعدها جاء مربّي الصّفّ شــافعًا لهم وطالبًا منهم أنْ يقدّموا قربانًــا، "تلميذًا مُذنِبًا" لكي يُنهي الإشــكال مع المدير، ويُنقذ المدير من هذه الورطة، فكان للمربّي ما طلب، ونالوا عفوًا شاملاً.

لكنّ طــلاّب صفّه لم ينسَــوا العقاب المُرّ، فقرروا جمــع العِصِيّ من جميع الصّفوف وتكســيرها. وفي الصّباح كانت المَهَمّة منتهية، وبدأ التّحقيــق ليشــمل جميع الصّفوف، بــدءًا من أعلــى الصفوف إلى أن وصل إلى الواشي منَ الصّفّ التّمهيدي، ولسوء حظّه لم يدرِ خطورة فِعلته حين وقف أخوه البِكر مع برهوم يعدّان الخمســين ضربة على راحــات أكُفّهم، التي كانت منفرجة كالصّليب، بدايةً، وشــيئًا فشــيئًا

انضمّت وتقوّســت مــع انحناء الظّهر ولتُكَوّن زوايا حــادّة، خاصّةً وأنّ الضّربة الهاوية على أطراف الأصابع لم تُحْسَب.

حين عادت العائلة إلى حيفا بعد غياب أسبوع لم تجد شيئًا ممّا تركوه. حتّى قرطاسيّته، لم يجدها. ذهب إلى بيته وإلى بيوت أترابه وزملائه علــى مقاعد الدّراســة، فلم يجدهم. وجــد مكانهم أناســاً يتكلّمون لغــةً لــم يفهمها. حينهــا، فَهِم أنّ الوطــن قد ضــاع. وأنّ البكاء على الأطلال لا يُجدي نفعًا. وعندما فَهِمَ، وجد نفســه في ســاعة الميلاد الثّانية، عضوًا فعّالاً في شبيبة البُلشفيك، شبيبة العدالة الاجتماعيّة كمــا كان يصفهم والــده. فَهِمَ أنّ الحوْلَ والقــوّةَ باللّه مقرونة بخير العمل والإيمــان والمثابرة والإصرار، ليناضل ضدّ الظّلم والاضطهاد والاستبداد ومن أجل إرجاع أصدقائه إلى بيوتهم، وإرجاع البيوت إلى أصدقائه، كما كانت في سابق عهدها.

ولا بُدّ من النّضال ضدّ الظّلم والاضطهاد بُكُرةً وأصيلاً.

ولا بُدّ من إرجاع الطّيور إلى أعشاشها مهما طال الزّمن.

2

دخل برهوم مُعترك الحياة مباشـرة، بعد رجوعه إلى حيفا الضّائعة، مـن أضْيـق أبوابهـا. حيـث كان يحلم بغـدٍ مُشْـرقٍ عزيـز، كباقي شـباب جيله في العالم، الّذين ينهون دراسـتهم الثّانويّة ويُلْحِقونها بالجامعيّة، كلّ حسـب طموحِه ورغبته وإمكاناتـه. لكنّ الرّياح جرت بما لا تشـتهي سـفينته، ووجد نفسـه كباقي أترابه، من قومِهِ، في سـوق العمل، يُتاجـرون بقوّتهـم وطاقاتهم وعضلاتهـم، من أجل معاشٍ زهيدٍ يحضره للبيت، آخر النّهار، لمسـاعدة أمه وباقي إخوانه لسدّ وتوفير لقمة العيش، بشرف وإباءٍ وعزّ وكرامة.

بـدأ حلقتـه الثّانيـة من حياتـه، بعد الضّيـاع، عضوًا فـي "الجماعة البلشـفيّة". كان قد عرّفـه عليهم أخوه الأكبر. وبـات العمل اليوميّ الجِسـمانيّ مقرونًا بعمـلٍ يوميٍّ فكريٍّ. فالفكر غـذاء الرّوح والرّوح غذاء الفكر، والفكر والرّوح يكوّنان جسدًا واحدًا في جسدٍ واحدٍ. فكم هـو جميلٌ أن يقترن الجسـد والفكر ليَكُونا معًا ويُكوِّنـا غذاء الرّوح الهنيء، من أجل سعادة الآخرين وسعادة الذّات.

كان برهوم لطيف المعشـر، أنيسًا تصطفيه الرّوح بسرعة، ومعلّمًا مخلِصًا في مهنته ومتواضِعًا تحبّه القلوب، بدون مُقابلٍ.. علّم أجيالاً وأجيالاً. إنّهم يكنّون له التّقدير والمحبّة والوفاء.

أُرسِلَ برهوم وبعض من رفاقه لجمع تواقيع المواطنين ضدّ العدوان علـى جمهوريّة كوريا الاشـتراكيّة، وكان ذلك في الخمسـينيّات من القـرن الماضـي، إلى قريـة في قضـاء حيفا، بطلبٍ من سـكرتير المنطقة للشّبيبة.

أقلّـت الحافلـة العموميّة الرّفاق إلـى هناك، وقـد كان التّجاوب جيّدًا وناجحًـا، وكان عـدد الموقّعيـن كبيرًا، الأمـر الّذي سَـرّ الرّفاق وملأ قلوبهم سـرورًا وسـعادة وأطلقهم على سـجيّتهم، وراحوا ينشدون الأناشيد الشّبابيّة باللغتين العربيّة والعبريّة، الّتي كانوا قد تعلّموها فـي خلاياهم التّنظيمية، في الشّـبيبة. إذ كانت خلايا الأحياء تجتمع مرّةً كلّ أسـبوع، بعد يوم عمل شاقّ، من أجل تنظيم العمل الحزبيّ للأسبوع الّذي يليه.

ولدى عودتهم ووصولهم مشارف مدينة حيفا الشّماليّة، أوقفت الحافلة العموميّـة فرقةٌ من الشّـرطة للتّفتيش، بتهمة "حيـازة ممنوعات". وفي تلك الفترة كانت المشتريات مقنّنة وحسب "كوبونات" تتسلّمها كلّ عائلة شهريًّا وذلك "لتوفير حاجيّات الجميع"!

عنـد صعـود الشّـرطيّ الحافلـة مُبتدئًـا تفتيشـاته الاسـتفزازيّة، أعترضه برهوم قائلاً: "إلى متى؟ تفتيشـات، تفتيشـات!". وحيث أنّ ملامـح برهوم عربيّة، وعرفوه عربيًّا حين سـقط في امتحانهم من لهجته، فقد سيق مع عربيّ آخر متقدّم في السّن إلى مركز الشّرطة القريب.

كانـت "التّهمـة" الموجّهة إلـى برهـوم مثلّثة: فالأولـى إعاقة عمل

رجـال الشّـرطة، والثّانيـة تحدّيه لرجـال الشّـرطة واعتراضه على اسـتفزازهم، والثّالثة كانت إصـدار أصوات الدّجاج وهـي "تُقاقي"! فقد ادّعوا أنّه عندما تقدّم منه الشّـرطيّ سـائلاً عـن الدّجاج، أجاب برهـوم: "إنّ الدّجاجـة قد طارت وبقيت البيضتان هُنا"، مؤشّـرًا إلى فَرْجِهِ، ألأمرَ الّذي أنكره برهوم في المحكمة لاحقًا.

بعد عدّة شـهور، حين مثُل برهوم أمام المحكمة، طلب منه القاضي يمين القسـم، أن يُقسـم على قول الحقّ، كُلّ الحقّ.. ولا شـيء غير الحقّ! وكان بطبيعته، لا يؤمن بالقَسَـمِ، كان يؤمن بقول الحقّ ولو على قطع الرّأس.

روى للقاضي قصّة السّـارق الّذي وَجَدَ بالقَسَـم فَرَجَهُ، فعندما طلب القاضي من المتّهم قسم اليمين بقول الحقّ وأنّه لم يقُم بالسّرقة، تنهّد منتشيًا ومُتأكّدًا بأنّ القَسَمَ سينقِذُهُ من التّهمة الّتي اقترفها.

أصـدرت المحكمة قرارها بتبرئة برهوم مـن التّهمة المُوَجّهة إليه.. خاصّـةً عندما علم القاضي أنّ الشّـرطيّ إيّاه، طُرِد من وظيفته بعد أن كان متورّطًا في قضيّة جنائيّة.

أمّا الشّيخ المسنّ، فكان في حوزته سلّة من البيض، كان قد اشتراها بعد يوم عمل شاقّ عند الخواجات.

عرف الشّيخ المسنّ أنّ تهمته في سلّته.

رجال شرطة.. متّهمان.. وسيّارة في طريقها إلى مركز الشّرطة.

بـدأ الرّجـل العجوز بإلقـاء البيض من نافِـذة السّـيّارة، الواحدة تلو الأخرى، مُغافِلاً رجال الشّـرطة! وبعد الانتهاء من رمي البيض، رمى السّلة. وهكذا وصل إلى مركز الشّرطة لا يملك شيئًا سوى آثار شقاء على جسده، بعد يوم عمل مُضْنٍ. فكان نصيبه البراءة أيضًا.

عندمـا وصل برهـوم البيت، حدّث والدته عن الإشـكال مع القَسَـم والتّحـدّي والاضطهاد والتّمييز اللاحـق بهم. فقصّت له الوالدة قصّة الشّيخ زنكي والقَسَم، وسأرويها لكم كما روتها لي والدة برهوم:

وجـد لصّان حمارًا نافِقًا. أخـذاه للدّفن في قرية نائية، معلنين لأهل القرية أنّ وليًّا منَ الأولياء قد مات، فدفناه وأقاما له "مقامًا مقدّسًا" في تلك القرية، وأطلقا على المقام أسـمًا، هو مقام الشّيخ زنكي. وبدأ النّاس يُحضّـرون الذّبائح والعطور.. المال والغِلال، وكلّ ما لذّ وطاب من الخيرات والمنتجات تكْرُمةً للوليّ الصّالح... "الشّيخ زِنكي"!

عـاش اللصّان رغيد العيش وهناءه، متّفقَيْن على المناصفة في كلّ شـيء، إلى أن جـاء ذلك اليوم الّـذي مرِض فيه أحدهمـا، فغاب عن العمـل اليوميّ، وغاب الثّاني عن عِيادَةِ صديقه المريض ولم يسـأل عنـه قطّ. فبعث اللـصُ الأول لصديقه معاتبًا لائمًا ومحاسِـبًا. فأتى الصّديـق لعيادة صديقـه المريض معلنًا له أنّه لم يَـزُرْ المقام أحدٌ! ولـم يرَ ولم تصِـلْ أيّة "عطـوة" للمقام. حين لم يصـدّق المريض كلام صاحبه الشّريك في "المقام المقدّس" أقسم له "برحمة الشّيخ زنكـي الوليّ الصّديق"، أنه لم يجنِ شـيئًا في تلـك الأيّام. وبالطّبع لم يصدّقه المريض قائلاً: أيّ قسـمٍ هذا الّذي تُقْسِمه وعن أيّ شيخ تتحدّث، "وَلَكْ ما إحنا دافنينو سوا"..

فقد أوصته والدته بقول الحقّ دائمًا، لأنّ الشّراكة المبنيّة على الحقّ هي حقّة، والمبنيّة على الباطل هي باطلة.

وهكذا كانت الشّبيبة شراكة رفاقيّة حقّة، شراكة في التناصف ونفي الحسـدِ والابتعـاد عنه والتراحـم، فجذورهم في رحـم هذه الأرض ممتـدّة، وكُلّهـم من رحـم واحدٍ هو الوطـن. وقول الحقّ ولا شـيء غيره، واجـب عليهم، والصّدق في الوعد والعهـد والموعد والطّريق

والفكر هي من شـيم الحزب والشّـبيبة، والمطلوب المحافظة عليها وتطويرهـا بما فيهـا مصلحة الوطن والشّـعبين، والحـزب بجبهته العريضة، والشّـبيبة درعهما الواقي لنا جميعًا من العواصف الرّاهنة والآتية.

لنكُـن كما كنّا في تلـك الأيّام، ولنُعِدْ ذاتنا إلى ذاتنـا ولنَعِدْ ذاتنا أوّلاً بالبقـاء علـى العهد وعلـى الطّريق السّـليم المتشـبّث بالأمل نحو المسـتقبل الزّاهر لعمّـال وفلاّحي شـعبنا ولكلّ شـعوب المنطقة. لنبدأ بانتقاد أنفُسِـنا ومحاسـبةِ أنفسِنا والنّظر في المرآة. فالانتقاد الذّاتي هو الأسـاس وأسـاس كلّ نجاح وأسـاسٌ في تطوّر مجتمعنا نحو مستقبل أفضل.

فكـم هو جميلٌ أن تُراقبَ نفسَـك، وكم هو قبيـحٌ أن تُراقبَ النّاس، فمن راقبَ النّاس مات همًّا..

3

فـي أوج صراع الحرب الباردة، في خمسـينيّات القـرن الماضي، بين معسكر الخير الممثّل بالمُعسـكر الاشتراكي ومُعسكر الشّر الممثّل بالإمبرياليّـة الأمريكيّـة، قـرّرت الحكومـة الأمريكية إرسـال وزير خارجيّتها جون فوستر دالاس لزيارة البلاد. وكان هدف زيارته محاولة رسـم خريطة للشرق الأوسـط، كالّتي تحاول رسمها وفرضها اليوم على المِنْطقة، لتمنحه اسمًا جديدًا، الشّرق الأوسط الجديد.

كانت تحاول إسـقاط الأنظمة العربيـة التّقدّميّة والوطنية في مصر وسوريا ومحو وجود حركة التّحرّر العربيّة في مشرق الوطن العربي ومغربـه. وعـن طريق إسـقاط هـذه الحـركات الوطنية تسـتطيع الولايات المُتّحدة الأمريكيّة إسقاط المُعسكر الاشتراكي لاحقًا. فمن جهة حاولت دفع إسرائيل إلى حرب مع مصر وسوريا ومن جهة أخرى دَفْعَ تركيا إلى حرب مع سـوريا، وبعيدًا عـن هاتين الدّولتين، ذهبت أيضًـا للتّآمر على حكومة د. محمّد مصـدّق الوطنيّة في إيران، الّتي أمّمت النّفط غير آبهة بردّ الاستعمار وغضبه وكانت سبّاقة في هذه الخطـوة الجريئـة. فعِداء الولايـات المُتّحدة لسـوريا وإيران والوطن

العربي ليس بجديد.

وعلى ضوء زيارة فوستر دالاس، وزير الخارجيّة الأمريكي للمنطقة، تقرّر في مؤسّسات الحزب والشّبيبة، تنظيم نشاطات وفعاليّات احتجاجيّة ضدّ هذه الزّيارة. بدأت وبدعوة من قيادة الحزب في حيفا، تُنظّم المسيرات والاحتجاجات والتّظاهرات. وقد برز حينها شعار "فوستر دالاس يا عدوّ أُخْرُج من أرضِنا"، مكتوبًا، علنًا وسِرًا، على جدران المدينة وعلى الحافلات العموميّة ومهْتوفًا ومسموعًا في المسيرات والمظاهرات والتّظاهرات.

توزّع الرّفاق على جميع مناطق حيفا، لتنظيم الفعّاليّات وكتابة الشّعارات. وأرسل برهوم وبعض من الرّفاق اليهود والعرب إلى منطقة السّعادة، "التشيك بوست"، لكتابة الشّعارات المنددّة بالزّيارة وبالتآمر على منطقتنا. وبدأوا كتابة الشّعارات على الجدران والحافلات وعلى كلّ مكان وجدوه فارِغًا ويُمكن الكتابة عليه. كانت أدوات الكتابة عبارة عن فرشاة، صَبْغة حمراء ولوحة خشبيّة كُتِبَ عليها حَفْرًا، بواسطة منشار، الشّعار المُنادي بطرد فوستر دالاس.

وعلى ما يَذْكُر برهوم، كان الطّقس ماطرًا، وكانت وتيرة كتاباتهم متقطّعة حسب الطّقس فإن أمطرت استراحوا تحت غطاءٍ أو حتّى داخل الباصات، وإن أصحت استمروا في كتاباتهم. وعادوا إلى بيوتهم، في غَيْهَبِ الغسقِ، بعد أن أوقفوا سيّارة شرطة، أقلّتهم إلى حيفا، عادوا خانقين أنفاسهم، وفي قلبهم هاجسٌ واحِدٌ ووحيدٌ، لو كان هذا الشرطي السّائق ذا حاسّة شمّ جيّدة، لناموا في بيت خالتهم براحا!

وفي اليوم التّالي، تفرّقوا إلى مجموعات لتوزيع المناشير في مناطق حيفا الدّاخليّة، حيث لاحقتهم الشّرطة، لاعتقالهم، بحجّتها الواهنة،

أنّ المنشـور معـادٍ للدّولة وفيه تحريض ولم يمـرّ على الرّقابة ولم تُؤخـذ موافقتهـا. وما كان من الرّفـاق إلا الهروب لتخبئة المنشـور. وكانـت مـع مجموعة برهـوم رفيقـة يهوديّة تُدعى روتـي، وكانت تُعاني من عاهة جسـدية تمنعها من الرّكض، لكن عاهتها الجسديّة لم تَحُدّ من عزيمتها لنصرة الحزب والشّـبيبة، فقد أخذت المناشـير وخبّأتها في صدرها قبل أنْ تخُونها رِجْلُها.

وكم تكتّمت وتتكتّم الصّدور على أسرار وأشياء لا يعلمها إلا اللّه.

وجدت روتي مخبأها مع "الممنوعات" في برميل كبير للنّفايات. وبعد أن زالت الغيمة، ذهب الرّفاق إليها وأخرجوها من مخبئها. وكم كانت سعادتها كبيرة حين علمت أنّها أنقذت الرّفاق من تُهمة باطلة وظالمة ولم تهتمّ للمكان الّذي كانـت فيه. ولن أحدّثكم كيف كانت رائحتها. أردْت سـرد تفاني الرّفيقة روتي وتفاني رفاقها من أجل الهدف الّذي تطوّعوا لتحقيقه، وتفاني الرّفاق لحماية بعضهم البعض - وهذا ما ينقص بعضًا منّا.

جـرت عادة الرّقابة على شـطب جمـلٍ من مقالٍ أو حتّـى منع إصدار منشـور أو جريدة. وكم مـرّة مُنِعت صحيفة الإتحاد مـن الصّدور أو وُجدت بعض صفحاتها فارغة أو سُمِح بنشر جزء من المقال أو الخبر أو التّعقيب وحذف الجزء الآخر.

فما أجبن من حذفَ وما أشجع من كتبَ..

فـي أحد أيام الصّيف أُرسـل برهـوم ورفاقه لـدورة تثقيفيّة، لمدّة أسـبوع. وكان يعمـل حينهـا في دائـرة البريد. فكيف سـيذهب إلى الدّورة؟ وكيف سيتغيّب عن العمل! فَكّرَ وفَكّرَ... ووجدها...

ذهب إلى الطّبيب، وكان يومها د. برايزيس طبيب عرب حيفا. فدخل إليه برهوم يشـتكي من آلام في الصّدر وصعوبة في التّنفّس. بعد

الفحص والتمحيص والتشخيص وصل إلى سؤاله الأساس، كم يومًا من الرّاحة تطلب؟ فأخذ أسبوعًا كاملاً، حسب حاجته للدّورة. وسلّمها إلى المسـؤول عنه في دائرة البريد. كانت نُقطة الالتقاء والإنطلاق نادي الحزب الواقع في درج الموارنة (اسمه اليوم نادي إميل توما).

فذهب برهوم إلى هناك يحمل على ظهره كيس السّفر "الجربنديّة" وعلى وِزْره "مَطَرة" ماء. وفي المسـاء، وفـي طريقه إلى النّادي، رآهُ المسـؤول في دائرة البريد، مستغْربًا، كيف هذا وأنت مريض؟ وكان يعرف أنّ هذا النّادي تابع للحزب البُلَشفيّ، حيث حُفِرَ على بابه حرف القـاف... وحين عاد من الدّورة الحزبيّة، كانت تنتظرُه رسـالة فصلٍ من العمل.

حـرف القاف هو شـارة ورمـز الحـزب الانتخابي، قبل العـام 1965، وكان الرّفـاق يدعـون النّاس للتّصويت للحـزب ويهتفون صوِّت قاف ولا تخاف. وهذا يدُلّ على الجوّ الإرهابي الّذي كانت تفرضه السّلطة مُعتبـرةً التّصويت للحـزب، جريمة مُخيفة ومُميتـة! ومن يجْرُؤ على تلك "الجريمة" غير الشّـيوعيّين وأصدِقائهم.. عدا عن جريمة قراءة الإتّحاد سِرًا وتوزيعها سِرًا وكان قارئها يُهدّد بالفصل أو حتّى يُلاحَق فكم بالحريّ أن تكون عُضوًا في الحزب.

كانـت المُظاهـرة الّتي توّجت نشـاطات الاحتجاج ضدّ زيارة فوسـتر دالاس، فـي منطقـة الهدار، قرب البريد. وكانت فرقة من الشّـرطة تحيـط رفيقًـا اسـمه أحمـد قـوّاس، لتعتقلـه على مشـاركته في المظاهـرة، فكيـف يُمكـن تخليصه مـن أيْديهم؟ هُنا وجـد الرّفيق بطرس (صخر)، أخ برهوم الأصغر الحلّ... كانت المظاهرة بعد الظّهر وجاء الرّفيق بطرس (صخر) للمُشاركة في المظاهرة بعد يوم عمل شاقّ، ورأى كيف أنّ الفرقة تُحيط الرّفيق. أغاظ هذا المنظر الرّفيق صخـر، وحقن الدّم في عُروقِهِ، ومن بعيد أخرجَ وعاء الأكل الزّجاجي

"المرطبان" من السّــلة وفيه أكلة حرّاقة جدًّا ورماه على الفرقة بكلّ مــا أوتيَ من عزمٍ وقُــوّة وإرادةٍ ضدّ الظّلم صائبًــا الهدف! وهو رأس ضابط الفرقة.

وبهذه الضّربة، ضربة معلّم، تركّز اهتمام فرقة الشّــرطة في علاج ضابطها وتنظيف بدلته، وبهذه الضّربة وجد الرفيق أحمد حرّيّته.

وأذكــر مقولة الخليفة عليّ بن أبي طالب كرّم اللّه وجهه حين أنكره طلحة في العراق قائلاً:

عرفتني في الحجاز وأنكرتني في العراق فما عدا مما بدا.

لكنّنا نعرف رفاقنا ولا ننكرهم، لا يوم الشّدة ولا يوم الفرج.

ونعرف أنّ الحريّة تؤخذ ولا تُمنح.

والغبن والاضطهاد يُزال ولا يزول.

فكما قال الشّاعر أحمد شوقي، أمير الشّعراء:

وللحريّة الحمراء باب بكل يد مضّرجة يُدَقُّ

دمُ الثّوارِ تعرفه فرنسا وتعرف أنّه نورٌ وحقُّ

لنكُــن كتلة واحدة، تُعطي ثقلها في كفّة الميزان الأولى، الّتي تهبِط لترفع الكفّة الثّانية عاليًا كالسّنا وهي كفّة الحزب.

فما أجمل السّماء وما أجمل كواكبها وما أنجع الرؤيا الواضحة.

4

عاش الأول من أيّار عيد العمّال الأحرار.

أول أيار، يومنا، عيد العمّال، يومنا، عيد التّضامن، يومنا.

عاشت الأخوّة اليهوديّة العربيّة.

... وشعارات أخرى رُدّدت بهذه المناسبة العالميّة الكريمة في المظاهرة الّتي نظّمها الحزب مع باقي التّنظيمات العمّاليّة في حيفا، حرصًا من الحزب على الوحدة العمّالية ووحدة الطّبقة العاملة وأملاً منه في تنظيمهم وتجنيدهم في معاركه السياسيّة المحليّة والمنطقيّة والعالميّة وعلى رأسها قضية فلسطين وقضايا عُمّاليّة تخُصّ شعبَي هذه البلاد، حيث مكانهم الطّبيعي لخدمة السّلام والأمن والعدالة الاجتماعيّة والحريّة لجميع الشّعوب المضطّهَدَة والواقعة تحت الاستبداد. وليس من باب الصّدفة حين يدعو الحزب دعوته من على صحيفته "الإتّحاد"، يا عمّال العالم اتّحِدوا ومضافة إليها في الجوهر ويا أيتها الشّعوب المضطّهَدَة إتّحِدي..

وبهذه المناسبة النّضاليّة وصلت فرقةَ الشّبيبة هديةٌ من جمهوريّة ألمانيا الاشتراكية، اشتملت على تجهيزات كاملة لفرقة العزف، من طُبُول على اختلاف أحجامها وبَرَزانات وصُنُوج.

كان قد حُدّد للمسيرة مسارٌ متّفقٌ عليه. مسارٌ تمُرّ فيه المظاهرة لتجُول في شوارع حيفا، على أن تمُرّ بمحاذاة مبنى الهستدروت (نقابة العمّال) الواقع في شارع "هحالوتس"، حيث كانت هناك منصّة تقف عليها قيادة الهستدروت، وعلى رأسهم يوسف الموجي من حزب المباي، لتُحيّي المتظاهرين، الّذين تقسّموا إلى فرق بحسب انتماءاتهم الحزبيّة، وكلّ فرقة ترفع شعارات وأعلام حزبها. كان عريف الحفل، من على المنصّة، يُحيّي بواسطة مُكبّر الصّوت فِرَق المتظاهرين، حيث كان يُعلن عن وصول كلّ فرقة، ويُرحِّب بها وبالحزب الّذي تُمَثّلُهُ وتنتمي إليه. وحين قَرُبت فرقة البلاشفة من المنصّة، قام عريف الحفلِ هذا بالإعلان عن مرور الرّفاق وكانت "تحيّته" لهم كالتّالي: "فرقة بائِسة من الشّيوعيّين تمرّ بجانب المنصّة".

قالها عند مرور فرقة أبناء الكادحين وفرقة العزف وحَمَلَة الأعلام، على اعتبار أنها اضعف نقطة في جسم فرقة الحزب المتظاهِرة، "أبناء الكادحين" بحُكم جيلهم الغضّ، وفرقة العزف حيث كان لكلّ رفيق آلته الخاصّة وهو مسؤولٌ عنها ومُوكلٌ بإرجاعها وفرقة حَمَلةِ الأعلام الحمراء والشّعارات. كانوا يسيرون بعزّة وإباء دون خوف أو وجل، مقتنعين بصدق الطّريق. كان لباسهم موحَّدًا، وهو عبارة عن قمصان ناصِعة البياض كالثّلج، طاهرة وصادقة كقلوبهم، وتلُفُّ ياقاتهم ربطات حمراء كلون الدّم الجاري في عروقهم، في عروق الإنسان، كلّ إنسان. هذا اللون الأحمر موحِّد وموحَّد للبشريّة جمعاء، على اختلاف انتمائها القومي والطّبقي والدّيني والمذهبي

والحزبي..

والظّاهِـر أن "التّحيّـة" السّـاقطة هذه كانت إشـارة لزُعران يوسـف الموجـي بالهجوم على النُّقطـة الضّعيفة والحسّاسـة. فبعد مهانة كتلك الّتـي كانت، "طاب المـوت" للرفاق المُتظاهريـن والحاضرين وهبّوا كالأسـود للدفاع والذّود عـن الحزب ولردّ المهانة والمذلّة الّتي أرادوهـا للحـزب وللرّفاق، فأبلوا بـلاءً وأداءً حسـنًا بالمُعتدين، حيث كانت أدوات الدّفاع والضّرب لفرقة العزف، البَرَزانات الجديدة وعِصِي الطّبـول والأعلام، فكما تعْلمون أنّ الصّناعـة الألمانية متينة وقويّة ودقيقـة تصيب الهـدف وموجِعة، فـإن أطعمتَ فأشْـبِعْ، وإن ضربتَ فأوْجِعْ، فشبِعوا وأُوجِعوا.

خـرج الرّفاق مـن المعركة مَرْفوعـي الهامات ومنتصبـي القامات ، منتصرين.

وعلـى ضـوء ما حـدث، وبمناسـبة الأوّل مـن أيّـار، عُقِدَ فـي نادي الحزب، الواقع في شـارع هرتسل اجتماعٌ للكادر. وكانت هناك فرقة للشّـبيبة لحماية اجتماعات الحزب. وعند وُصول النّقاشات والتّداولات والتّحضيرات أوْجَها، سُـمِعت جَلَبةٌ في الخارج. فخرجت فرقة الشّبيبة لترى مـا الأمر، وإذ بفرقة كبيرة العدد مُجهّـزة بعِصِيّ من المطاط، ناعقين بأعلى صوتهم، شـعاراتهم العنصُريّة: إذهبوا إلى موسكو، إذهبوا إلى دمشق وإلى مصر.. الشّعارات إيّاها الّتي نسمعها اليوم.

كان قـرار وحـدس برهـوم ورفاقه صائبيـن، فتراجـع والرّفاق إلى الـوراء، إلـى المطبخ، حيـث وضعوا فـي جيوبهـم الملح اسـتِعْدادًا للمُواجهة وتقَدّموا باتّجاه المُعتدين وقاموا برشّ وذرّ الملح في عيون المُتطاوِليـن علـى حُرْمةِ نادي الحـزب لأنّ لهذا المـكان، النّادي، ربٌّ يحميه، هم الرّفاق. وسـيطروا على الوضـع، طاردين المُعتدين من

حيث أتوا بعد أن لُقِّنُوا درسًا من الصّعب نسيانه، وحتّى أنّهم أسروا واحِدًا من المهاجمين.. الأمر الّذي أثار استهجان الرّفاق المسؤولين، حيث أطلقوا سراحه بعد أن عرفوا من الأسير، أنّ هذه المجموعة تتبعُ وتنتمي لكتائب العامل (פלוגות הפועל) من شلّة يوسف الموجي.

وفي مناسبة أخرى من العام إيّاه، عَقَدَ الحزب في حيفا مؤتمره في سينما بيئير (פאר) حيث أتت مجموعة كتائب العامل (كانوا يُعرّفون أيضًا بكوماندو آرمون) لتسترِدّ كرامتها الّتي سحقها وداسها الرّفاق في أوّل أيّار. أتوا مُتَحَدّين الرّفاق، يحملون بالوناتهم وبطرف كلّ بالون صُفّيرة، ينفخون الهواء في البالون ويُفْرِغونه منه عن طريق الصّفّيرة، إلى آخر ذرّة هواء، ممّا أحدث إزعاجًا لا يُطاق للمؤتمرين.

وطُلِب منهم الهدوء وعدم الدّخول إلى القاعة، وإن أرادوا الحوار فليتفضّلوا وإن أرادوا الإزعاج فلينصرفوا من المكان، وطبعًا كان هدفهم التّشويش والانتقام، الأمر الّذي تطوّر وأدّى إلى مُشادّة كلاميّة ويدويّة وأُبْعِدوا من مِنطقة المؤتمر شيئًا فشيئًا إلى أن وصلوا إلى منطقة سينما "آرمون"، الواقعة في شارع الأنبياء (الهدار)، معْقِلِهم، وهناك أيضًا وجد المُعْتَدُون الجَنْبَ الّذي يُوجِعهُم.

وفي أحد الأيام بينما كان برهوم ورفيقه رياض عودة المعلم في منطقة الهدار، تقدّم منه شابّ، وعلى ما يظهر أنّه ينتمي إلى مجموعة كوماندو آرمون (كتائب العامل)، وقال لبرهوم: لي معك حساب.. فتقدّم منه صديقه رياض قائلاً: لك مع برهوم حساب! حلّه الآن! لِمَ الإنتظار.. وقام رياض بضربه ناطِحًا برأسِهِ ذلك الشّاب فأسقطَهُ أرضًا ولاكِمًا إيّاهُ كما يجب، ومُعَلّمه درسًا يصعُبُ عليه نسيانه لكنه أنساه الحليب الّذي رضعه.

كان الرّفاق في كلّ مناسبة حزبيّة يحملون دمهم على أكفّهم

حاضريــن لكلّ مواجهة يمكــن أن تحصل دفاعًا عــن الحزب، وليس بالضّرورة مواجهة يدويّة.

هــم البنــاءون والمدافعــون والحامــون. هــم الشّــجعان الصناديــد والأشاوس. نعم هم الدّرع الواقي لبلادنا، بشعبيْها. هم مِلْحُ الأرض وعيون الأرض وحجارة الوادي.

واســمحوا لي أن اقتبس من ذلك النّشــيد الأغرّ، بيتًا من الشّعر يليق بالرّفاق، الرّفاق الرّفاق:

بِكُم سنغيِّرُ الدُّنيا ويَسـمعُ صوتَنا القدرُ
بِكُم نبني الغدَ الأحلى بِكُم نمضي وننتصرُ

هؤلاء هم إخوان ورفاق برهوم فآتوني/نا بمثلهم.

5

وصــل خبــر لبرهــوم ورفاقه مفــاده، أنّ هنــاك اعتداء علــى مكتب المحامي حنّا نقّارة، محامــي الأرض والعرض، محامي البقاء والإباء والدّفاع عن شعبنا.

كان مكتــب أبــي طوني يجاور بيتًا تســكُنُه عائلة عربيّــة من أعوان السّلطة. حيث قاموا بفتح باب مكتبه واضعين داخله مريضًا يحتضر. أرادوا بهذا العمل، وبإيعاز وإيحاء ونُزولاً عند طَلَبِ مُشَغِّليهم، استفزاز المحامــي والنّيل منه، فهو المحامــي والمدافع الوحيد كقانوني، ضدّ الهويّات الخُضُر وضدّ مصادرة الأراضي. فأتى الرّفاق وبهدوء منقطع النّظير نقلوا المريض إلى غرفته المُحاذية للمكتب وهاتفوا سـيّارة الإسعاف لنقله إلى المستشفى. وبهذا الحلّ خاب أمل الجناة.

كان علــى الرّفــاق التّمتّع بهدوء وببــرود أعصاب، حيــث كان عليهم تفويت أيّ استفزاز في فترة الانتخابات البلديّة لأنّ يوم الاقتراع كان علــى الأبــواب، وكان الهمّ الأســاس إنجاح قائمة الحــزب، الّتي كانت تترأسها الرّفيقة تسيلا عيرم. كانت القائمة يهوديّة عربيّة مشتركة لخــوض الانتخابات، وهذا هــو المُمَيِّز والمُمَيَّــز للحزب عن غيره في

ترشيحاته.

تلقّت جميع خلايا الحزب والشّبيبة والأصدقاء والنّاشطون الميدانيّون توجيهات واضحة، تطلب منهم، عدم الرّد على أي استفزاز يقوم به عسس السّلطة، خاصّةً في يوم الاقتراع نفسه، حتّى ساعة إقفال الصّناديق، أمّا بعدها، فالويل لهم. ففي أحد الصّناديق في منطقة وادي النّسناس، فشل الرّفاق في كظم ولجم ردّ الفعل ولم يصبروا على تحرّشات الأعوان، وبدأت معركة حامية الوطيس قرب مفترق الجبل الخوري حيث كانت هناك كومة من الحصى وكأنّها هُيِّئت خصّيصًا لتلك السّاعة، فاعتلوها هاتفين بحياة الحزب وحياة الرّفيق ستالين، قَاذفين بالحجارة كلَّ من كان منهم بعيدًا وضَاربين ضربًا مُبرحًا كلَّ من كان منهم قريبًا وحين كانت كفّة المواجهة لصالح الرّفاق لنصر قادم، حيث جُرح في المواجهة كلّ من الرفاق: توفيق خوري (رصاصة في فخذه) وخليل خوري وجورج طوبي، تدخّلت قوّة من الشّرطة لصالح المدسوسين والعسس، واعتقلت الرّفاق وكان من بينهم زاهي كركبي، أسعد مكّي، علي عاشور، يوسف عبده، سليم شامي وإبراهيم تركي. بدأ الرّفاق في المعتقل بإنشاد الأناشيد الثّوريّة كالأمميّة ونحن الشّباب وظلاّم يا ظُلاّم وصلاح ونشيد قرانا وبعد كل نشيد كانوا يهتفون بحناجرهم المباركة والعالية بحياة الحزب والشّبيبة والطّبقة العاملة. لقد أغاظت هذه الأناشيد والهتافات السّجّان وإدارة السّجن، فجاء أو أُرسِلَ متوَعِّدًا ومُحذِّرًا الرّفاق بالسّكوت وإلاّ... وعندما سمع الرّفاق هذا التّهديد المرفوض، والّذي تأباه النّفوسُ الكِرام، تقدّم منه طيّب الذّكر الرّفيق أسعد مكّي قائلاً وهازِئًا: اسمع، إذا منعتنا من الإنشاد اليوم، فلن نأتِيَ إليكمُ ولن نكون في ضيافتكُم قطّ. وبعد لحظة من المواجهة الكلاميّة، أحضر رجال الشّرطة اثنين من العسس الذين استفزّوا

رفاقنــا لغاية فــي نفس باعثيهــم، وإذا بالرّفاق يصرخــون طالبين من السّــجان: أحْضِرْهما إلينا، إلينا... كانوا يريدون تصفية الحســاب معهما. لكنّه لم يأتِ بهما إليْهم. ولم يُعرَف ما هو ســبب إحضارهما! وأُطلق سراح الرّفاق بعد تدخل محامي الأرض.

كانــت نتيجة الانتخابات حينها إدخال الرّفيقة تســيلا عيرم لعُضويّة البلديّة.

حدّثني الرّفيق أَلْفْرِد شحادة عن برهوم قائلاً:

في إحدى مظاهرات الحــزب في حيفا، وبينما كانت المظاهرة تجوبُ شــوارع المدينة احتجاجًا على فرض الضّرائب الباهظة الملقاة على أجــور الشّــغّيلة وتضامُنًا مــع العُمّــال ومن أجل تحســين أوضاعهم المعيشــيّة اليوميّــة، رافعين شــعار من أجل العمــل ولُقمة العيش، "خبز وعمل"، مرّت المُظاهَرة قُرب مجموعة من الشّباب اليمينيّ (قُدِّرَ عددهم بعشرين) الّذين راحوا يُطلِقون أصواتهم الحاقِدة من حناجر تنضــح بما فيها من كلمات نابية وكانت الكلمة المُسَــيْطِرة والبارزة، كلمة "بوز". هذا الأمر طَيَّر الشّــرر من عَيْنَيّ برهوم النّافِذتين وراح مُقابــل المجموعة اليمينيّة يهتفُ بأعلــى صوته وبدون مُكَبّر صوت، بحياة الحزب الشّــيوعي وشــبيبته، فكان حضوره ســيّد المكان حيث أَخْرَسَ صَوْتُه صوتَهُم.

وقــد ذكرت الرّفيقة طيّبة الذّكر بنينا فاينهويز، في إحدى مُذكّراتها، أنّ أوّل مــن رفع شــعار من أجل العمــل ولُقمة العيش، شــعار "خبز وعمــل" هــم رفاقنا حين كانوا يتظاهرون في شــوارع تل أبيب، في السنوات الأخيرة من عشــرينيّات القرن الماضي، إذ كانوا النّاشطين بيــن العمّــال وخاصّةً المُعَطَّلين عــن العمل. وتذكّر أيضًــا، أنّ رجال الشّرطة من الخيّالة البريطانيّة فرّقوا هذه المظاهرة بالقوّة. فكانت

معاداة بريطانيا للشّيوعيّين واضِحة. وبما أنّني ذكرت الرّفيقة بنينا فاينهويز، أريد تعريفكم بها بكلمة وفاء وعرفان وذِكْرِ جميلها: فقد كانت من الشّيوعيين الأوائل في فلسطين ومن المؤسّسين للحزب الشّيوعي الفلسطيني. وحين منع البريطانيّون، مستعمرو بلادِنا فلسطين مظاهرة الأوّل من أيّار، مشت لوحدها رافعة العلم الأحمر متحدّية جيش "مرابض ومرابط خيلنا". رفيقة، شيوعيّة، امرأة لوحدها تتحدّى وتواجه بشجاعة ودون خوف أو وجل جيش الإمبراطوريّة الّتي لا تغيب عنها الشّمس.

كانت الرّفيقة بنينا فاينهويز أوّل من حثّ الرِّفاق العرب على بدء تأسيس جمعية تُعنى بأمور أبناء الطّائفة الإسلاميّة وبالوقف الإسلامي في البلاد، ومن أجل منع التّطاول على مُقَدّسات العرب المُسلمين ومن أجل الدّفاع عن الأراضي، ومنع سلب الأراضي من أبناء الطّائفة الإسلاميّة لمصلحة المؤسّسة الحاكمة، وحتّى لا تضِيع وتُضَيَّع حقوق أهل البلاد في بلادهم ومن بلادهم عُمُومًا. ومن هنا تبلورت لاحِقًا فكرة تأسيس جمعيّة المبادرة الإسلاميّة في فكْرِ الرّفاق والأصدقاء طيّبي الذّكر علي عاشور، عصام العبّاسي وذيب عابدي، والرّفاق أطال اللّه في أعمارهم عباس زين الدّين، إبراهيم فحماوي، فتحي فوراني، سميح القاسم، عبد عابدي، وزاهي كركبي.

العمل شرف وحياة، فبدون عمل لا يستطيع الإنسان تكوين نفسه وذاته، والاستمرار في حياته، والخبز أساس الحياة، ولإحضارِه وخبزِه وتجهيزِه للمُسْتَهلِك يعملُ المزارع والعامل والطّحان والخبّاز والتّاجر. فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، وليس بكفاف اليوم من الخبز يحيا الإنسان، بل بدوام العمل والكدِّ، لأننا نُحارب من أجل لُقمة العيش الشّريفة وبدون مِنّة من أحد، لتكون لُقمة عيشِنا من عرق جبينِنا.

ومـن أجل عزّتنا وكرامتنا وأبسـط حقوقنا رفع ويرفع الحزب شـعار "من أجل العمل ولُقمة العيش". وفي بعض الأقطار العربيّة يُسـمى الخبز بالعيش لما فيه من معنى شامل للغذاء، فالعيش في المعاجم هو الطعام الأساس.

إذًا ليس صدفةً أن تكون تحيّة العمّال لبعضهم "العملُ شرفٌ".

لِنَقِف ونتروَّ، للحظة واحدة فقط، لا أكثر. لقد منع البريطانيّون رفاقَنا مـن التّظاهر وحتّى إصدار كلمتهم وعندمـا زال الاحتلال باحتلالٍ أو جـلا الاحتلال عن الأقطار العربية المحيطة ببلادنا ونالت اسـتقلالَها بقيـت القوانين هي نفسـها المفروضة تعسّـفًا وظُلمًـا وزُورًا على الشـيوعيين وضدّهم، فمن كان مسـجونًا عند البريطانيين سُـجنَ عند المصريين أو عند الإسـرائيليين أو حتّى سُلِّموا للإسرائيليين أي أنّهم نُقِلوا من السّـجن المصري إلى السّـجن الإسـرائيلي بعد زوال الاحتـلال الإنجليزي، ليكون "ظُلْم ذوي القربى أشـدّ مضاضةً.." وما زالت تلك الأنظمة تُحارب الشّيوعيين بشتّى التُّهم. لنسأل ونتساءل مع غيرنا من أبناء شـعبنا، مَنْ مِنَ الـدّول أو المنظّمات وقفت وتقف في صفّ معاداة العدالة الاجتماعيّة! ومَن منها يحاول النّيل والتّطاول على هذا الصّرح الجماهيري الواسـع المتين حينذاك واليوم؟ الجواب واضح، نفس الدّول والمنظّمات الّتي سـبّبت مأسـاة شعوب منطقتنا بهيمنتها على المنطقة إلى يومنا هذا. الإمبرياليّة هي وحدها السّبب فـي القتل والحروب والدّمـار والفقر والإرهاب والرّجعيّـة والتّخلّف.. أتصوّر أنّ المعادلة واضحة، ونحن لا نحتاج إلى توجيه هذه الأسـئلة لأنفسنا. لأنّنا نعرف ونَعي ونفهمُ الجوابَ تمامًا، بحقّ توجيه الأمميّة والعدالة الاجتماعيّة والبُلْشُـفيّة، أنّ الانتداب والاستعمار البريطاني والفرنسـي والأمريكـي والرجعيّـة العربيّة والصهيونيّـة والحركات الدّينية المُتزَمّتة والمُتطرّفة تُعادي حزب العدالة الاجتماعية والحُريّة

والإنسانيّة وحقوق الإنسان والتّقدم وتقفُ ضدّ أبسط حقوق تقرير مصير لشعب يرزح تحت الاحتلال. فسبيلُنا وطريقُنا ووُجْهَتُنا وجِهَتُنا وقِبْلَتُنا الفِكْريّة قويمة وصراطنا مستقيم والتّاريخ واضح والحدث واضح والمعادلةُ أيضًا واضحةٌ. فنحن "سواسية كأسنان المشط"، ولا لأحد فضل علينا. وعلينا أن "نحُكَّ جلدَنا بظِفرِنا"، وأنْ "نسهر على عنزتنا" وأنْ نأخُذَ أمورنا بأيْدينا و"لا يضيع حَقٌّ وراءه مُطالِبٌ". لأنّنا نحن البديل.

لا شكّ أنّ نَشيد الأمميّة يُنادي ويدعو جميع ضحايا الاضطهاد وجميع ضحايا الجوع ليتسلّحوا بفِكْرٍ نَيِّرٍ ومُنيرٍ ينقذهم من مأساتهم، يدعوهم بتلك الكلمات المُعَبِّرةً:

هُبّوا نمحو كُلَّ ما مرّ هبّوا حطِّموا القيود

وابنوا الكونَ جديدًا حرًّا وكونوا أنتم الوجود

6

فريق المُستقبل، هكذا كان يُدعى فريق الشّبيبة الشّيوعيّة لكرة القدم، إيمانًا من الرّفاق الشّباب أنّ الغدَ لهم وأنّ مجدَهم مُخلّدٌ وأنّ شعارَهُم على مرّ الزّمن "عاش الحزب والشّبيبة والوطن"، خالدٌ لا غبارَ عليه ولا تشوبه شائبة، صامِدٌ بوجهِ الرّياح والعواصف العاتية.

كانت ملاعب حيفا قبل الاحتلال، مركّزة في منطقة الموارس الواقعة بين حيّ الألمانية شرقًا، والبحر ومنطقة سيدنا الخضر غربًا، وبين حيّ بات جاليم شمالاً وشارع الزّيتون ودير مار الياس جنوبًا. حيث كانت هناك ثلاثة ملاعب، لثلاثة نوادٍ وهي: نادي التِرسانة، نادي الرّياضي الإسلامي وملعب لفريق شباب العرب التّابع لنادي الكَرْمِل وكان أعضاؤه من جميع الطّوائف. لكن بعد الاحتلال صودِرَت هذه الملاعب، أسوةً بالبلاد، وألحقوها بفرق "هكواح"، "مكابي" و"هبوعيل" وأصبح اسم الموارس "كريات إليعيزر".

تمامًا كما غيّروا اسمَ الوطن.

كانت التّمارين والتدريبات تجري في بستان الشّيوعيّة في حيّ وادي

النّســناس عدّة مرّات في الأسبوع، وحتّى ســاعات متأخرة من الليل، إلــى أن يُعلــن جيران البســتان انزعاجهم من الضّجــة. حينها ينتهي التّمريــن، ويذهب كلٌّ إلى بيته. وحدث ذات مــرّة أنْ وقعت الكرة في بســتان الأرمني، الّذي توعّد بتمزيقها وفزرها لكن بعد رجاء طويل أعادها سالمة، مشكورًا.

كانــت المبــاراة البيتيّة تُقــام في المــوارس والمُبــاراة الخارجيّة في البلدات المُضيفَة.

كان تمويل الفريق يعتمد علــى الرّفاق أعضاء الفريق وأصدقائهم، فقد كانوا يجرون ســحب يانصيب على جائــزة مُعيّنة، علبة دخان أو زجاجة مشروب روحي أو كتاب... تُمنح الجائزة لاحِقًا للرّابح بعد انتهاء بيع أوراق اليانصيب عندما يُعرف رقمها يوم السّــحب أو بعد الانتهاء من بيع جميع المربّعات الموجودة على ورقة كرتون كبيرة، حيث كان يُسَجّل على كلّ مربع اسم السّاحب أو المُشْتري. وكانت هناك طريقة أخرى للســحب، وهي عبارة عن قطعة خشبيّة مستديرة، يُغْرَس في مركز الدّائرة مســمارٌ وعليه عقربٌ يدور كعقرب السّــاعة، يُدار هذا العقرب بسرعة، حول محوره، فيقف عند أحد الأرقام. فإذا وقف فوق "الجائــزة" كانت من نصيب اللاعِب المراهن، وإذا وقف في مكان آخر كانت "الخسارة" من نصيبِهِ.

كان أعضاء الفريق يتلقّون، من طيّب الذّكر المحامي حنّا نقّارة، كلّ الدّعــم المــادّي والمعنوي، فقد تبنّى الفريق، حيــث كان بيته العامر مفتوحًا كعادته للرّفاق عمومًــا ولأعضاء الفريق خاصّةً. ففيه كانت تُقــام الاحتفالات والتّحضيرات والاجتماعــات والتقييمات والتّوجيهات لنصرة الفريق.

كانت تحضيرات أعضاء الفريــق لأيّة مباراة تحضيرات صعبة. فتارةً

عليهم تحضير الملابس الموحّدة، وتارةً أخرى تأمين وسائل السّير للوصول في الوقت. تارةً الإعداد الكافي لأيّ اعتداء محتمل يقوم بِهِ الفريق المنافس، وتارةً أخرى تأمين المأكل والمشرب.

قبل خروج أعضاء الفريق إلى منطقة كركوك (بَرْدِيس حَنَّه) وفيما هم ينتظرون الحافلة التي ستنقلهم إلى هناك، اعترضت طريقهم شلّة من شباب الحيروت (شباب يميني متطرّف) مُسْتَفِزَّةً إيّاهم، لكنّهم فشلوا في تنفيذ مأربهم، وسافر الرّفاق واللاعبون بعدها إلى "بَرْدِيس حَنَّه". وبدأت المباراة وكانت وُدّيّة إلى اللحظة الّتي شاط فيها طيّب الذّكر الرّفيق ديب عابدي الكرة إلى مرمى الفريق المنافس، حيث تصدّى لها حارس المرمى بصدره مُغْمى عليه، من قوّة الضّربة، مكمّلةً طريقها إلى شِبَاك مرمى "بَرْدِيس حَنَّه". عندها، هجم الفريقُ المنافسُ على فريق المستقبل الفائز، جسديًّا.

بعد أن كان النّصر حليفَ فريق الشّبيبة، جمع حكم المباراة بطاقات هوية اللاعبين من الفريق المنافس، مشترّطًا عليهم تسلّمها في مركز شرطة "بَرْدِيس حَنَّه"، حتى لا يتعرّض للأذى من الفريق المُضيف الخاسر، الّذي بدأ بتكسير زجاج حافلات فريق المُستقبل الفائز، المستأجرة. وكان له ما أراد.

كانت تنتظر فريق المُستقبل عند وصولهم حيفا، الشلّة إيّاها، من شباب الحيروت الّذين وصلتهم أخبار نصر فريق المُستقبل.

وكان أنصار فريق الشّبيبة الشّيوعيّة على أهبة الاستعداد، حيث انتظروهم قبل وصولهم المقرّ، وقد اخبروهم عن تلك الشّلّة، وأنّ الأصدقاء مُسْتَعِدّون لِنَجدة ونَصْرة ومساعدة أعضاء الفريق في مواجهتهم. ولم يعرف شباب الحيروت من أين انهالت عليهم الضّربات، سواء كانت من مواجهة مباشِرة أو من بعيد برميهم

بالزجاجات الفارِغة و"بعيارات" الميزان من ربع الكيلو حتّى الخمسة، فقـد كانت المواجَهة قريبة من دكّان "قوت الكادحين" التّابعة للحزب وبـإدارة الرّفيـق عبّاس زين الدّيـن. هرب المعتـدون مندحرين، مع أنّهم كانوا رياضيين، لاعبي ملاكمة وكمال الأجسام، إلاّ أنّهم وجدوا "ثُلْثَي المراجل" بالهروب ووجد لاعبو فريق المُسـتقبل وأصدقاؤهم كلّ "الرجولة والفِتُوّة" والصّمود والنّصر.

كان برهوم أكبر أعضاء الفريق سِنًّا، وكان يشجّع اللاعبين حتّى في خسارتهم ويعزّز معنوياتهم، بقوله "إيّاكم واليأس يا رفاق علينا أن نكون موحّدين ومُهيَّئِين ومُتماسكين لانتصارات قادمة، فالخسارة لا تعني شيئًا وربما كانت المرحلة من أجل خُطوتين إلى الأمام".

وفـي حادثة أخـرى، قام فريق عكّيّ، بدعوة فريق الشّـبيبة، لمباراة بطولـة كأس، علـى روح لاعـب مـن عائلـة روبـي كانت قـد وافته المنيّة وهو يقود درّاجةً ناريّةً. كان الملعب داخل سـور عكّا وبقربه، ويذكر برهوم أنّ اللاعب محمّد الصّفّوري كان قد شـاط الكرة بقوّةٍ وبسـرعة منقطعـة النّظير حيث تلقّاها حـارس المرمى بيديه ومن بعدها دخلت مرمى الفريق العكّيّ. وقد أُرْسِل حارس المرمى بعدها إلـى المُستشـفى لعلاج كفّيـه. وقد قيـل حينهـا، أنّ الضربة كانت حامية لدرجة أنّها سـلخت جلد كفّيّ حارس المرمى. وفي شوطٍ آخر دخلـت الكرة المرمى العكّيّ، عائـدةً أدْراجها بعد أن ضربت بجمهور المتفرّجين الواقفين وراء المرمى، ولم يحسبها حكم المباراة هدفًا.

كانـت إمكانيـات الفـرق العربية شـحيحة جـدًّا، حيث لـم تكن على المرمى شِـباك، كما هـي العادة. وكادت تكـون مواجهة بالأيدي مع العكّيين حين فاز فريق المسـتقبل بالـكأس، لكنّ تدخُّل أهل الخير حـال دون العـراك، مع أنّ فريق المُسـتقبل أتى مشـارِكًا في ذكرى المُصاب الأليم.

وفي مباراة أخرى بين فريق الشّـبيبة الشّيوعيّة، المُستقبل، وفريق النّهضـة الشّـفاعمريّ، فاز فريق المُسـتقبل بالكأس، لكنّ تسـليم الـكأس للفريق الحيفاويّ أُجِّلَ، وذلك بعد أنْ سـرق مُشَـجِّع الفريق الخاسر الكأس صاعِدًا أعلى مكان في الملعب مُعْلِنًا على الملأ أنّ "ولا اللّه بطلّع الكاس من شفاعمرو".

كان الالتزام بالوقت مُهِمًّا جِدًّا، خاصّةً في المباريات الخارجيّة، لأنّهم كانـوا ملتزميـن ومُلزميـن بالدّفع للحافلات حسـب عدّاد السّـاعات والفترة الّتي يقضونها مع الفريق. وذات مرّة سافروا إلى كفرياسيف لمباراة ودّيّة مع فريق الشّـبيبة هناك، وحيـن وصلوا الملعب وجدوا أنّ لاعبي الفريق لم يكونوا بعد على أهبة الاسـتعداد لبدء المباراة، الأمر الّذي أغضب سـائقي الحافلات بحجّـة أنّ عليهم أن يكونوا في حيفا قبل غروب الشّمس، لكونهم مُرْتبطين برحلة أخرى، ولم يكن مع الفريق المال الكافي لدفعه للسّائقين تعويضًا عن ساعات التّأخّر الزّائدة، ووضـع برهوم هويّته عندهم عربونًا علـى أنْ يدفع الدّيْن لاحِقًا، في حيفا.

كانـت اللياقة البدنيّة جـزءًا هامًّا ومُكمِّلاً للّياقـة الفكريّة، فكم كان المثل العربيّ صادِقًا: "العقل السّليم في الجسم السّليم". وقد اهتمّ قادة الحزب والشّـبيبة، بفكـر الرّفيق وجسـمه. كان يعمل من أجل تجانس وتكامل وتكافؤ الرياضة البدنية مع الرياضة الرّوحيّة.

ذكّرني هذا المثلُ، بحديثٍ لي مع شيخ جليل، لن أنساه أبدًا، ولا أريد أنْ يطويه الزّمان والنّسـيان، كان يرقُدُ في المُستشـفَى الّذي أعمل فيه. فحيـن تمنّيتُ له العمرَ المديدَ والصحّةَ والعافيةَ، أجابني بقوله أنّ هـذه الأمنية لا تكتمل بـدون أن تُنهَى ب "والعقل السّـليم"، فما فائدةُ الصّحّةِ والعافيةِ والجسمِ السّليمِ بدونِ العقلِ السّليمِ!

7

كان برهـوم عضـو لجنـة منطقة حيفا للشّـبيبة الشّـيوعية، وكان يُرسَـل كباقي الرّفاق لفروع منطقة حيفا، لعقد اجتماعات، نشاطات أو توزيـع أدبيّات الشـبيبة والحزب، كجريدة الاتّحـاد، الغد، الجديد أو صوت الشّعب بالعِبريّة (קול העם).

فحـدث مـرّة، أن كان برهـوم ورفاقـه فـي منطقة محانـي دافيد، الواقعـة في الجهة الغربيّـة لمدينة حيفا، مقابل شـاطئ العزيزيّة، لتوزيـع أدبيّات الحزب، فاعترضتهم زُمرة من شـباب يهود شـرقيين يمينييـن مانعيـن إياهم مـن توزيع الصّحف هناك، وإذ بشـباب من اليهـود العراقيّيـن يُنقِـذون الموقف حيـن رأوا علـى صفحة غِلاف مجلّة الغد صورة للقائد السّـوفييتي سـتالين، فبدأوا يهتفون بحياة الرّفيق ستالين واشـتروا الصّحف وأيضًا اهتمّوا بمعرفة مكان ومقرّ الحزب فـي حيفا، لزيارته والانخراط بصفوفه. وهذا شـيء معروف عن غالبيّة اليهود العراقيين بآرائهم اليسـاريّة وثقافتهم الواسـعة وأكاديميّتهـم. لكـن الدعايـة الصّهيونيّـة وإغراءاتهـا ومضايقاتها وتعسّـفها حيالهم حيـث اعْتُبِروا خونة لأبناء "قومهـم"، كانت أقوى

مـن ثباتهم على موقفهم. وقد حالت دون اسـتمرارهم في الطّريق الّتي بدأوها هناك. ويُحكى أنّه حال وصول بعضهم إلى حيفا باشروا في الحالِ التفتيشَ عن مقرّات الحزب وعن مكتب الإتّحاد خصوصًا.

وأخـذوا مكانهـم فـي صفوف الحـزب وهيئـة الإتّحاد كسـمير مارد وغيره.

وكمـا هو معروف عن أعمال التّخريب والتّرهيب الّتي اتّبعتها الحركة الصهيونيّة ضدّ اليهود في العراق وخاصّة بغداد، فقد كانت منزلتهم العلميّة وثقافتهم هُناك محترمة وعالية. وعاشـوا بأمان وحريّة بين إخوانهم العرب من الدّيانات الأخرى حتّى ظهور الحركة الصّهيونيّة.

فقد وصلت أيدي أعضاء الحركة الصّهيونيّة، الّتي عملت بالخفاء، إلى أماكن سُـكناهم وعبادتهم من أجـل تحفيزهم وحثّهم على الهروب إلى فلسـطين، مع أنّهـم بغالبيّتهم، رفضوا الفكـر الصّهيوني على اعتبـار أنّهم عرب أقحـاح رَضَوا باليهوديّة دينًا وبالأمميّة البلشـفيّة فِكرًا، منارًا ومنيرًا. فكرٌ سـنا للأمم طريقهم سَـنْوًا وسَـناءً، فَرَفَعَها وأَضَاءَها. لقد كان وما زال الفكر الشّـيوعي يقُضُّ مضاجع الرجعيّة العربيّة والصّهيونيّة، ففي بلادنا نُفِيَ وسُجِنَ الرّفاق وقُطِعَت الأرزاق وهناك في الحجاز والعراق قُطِعت الأعناق. هذا هو الثّمن، الّذي دفعه ويدفعـه الرّفاق مـن أجل حُرّيّة وطنهم وحُرّيّتهـم ومن أجل العدالة الاجتماعيّة.لم يدفعوا ثمن مواقفهم من أجل الكومنترن أو من أجل الإتّحاد السّـوفييتي أو لم يَتَّخذْ الحزبُ الموقِفَ الصّحيحَ لأنّه يتوافق معهـم، بل لأنّـه صحيحٌ. فقد كانـت الرجعيّة العربيّـة تحَرِّض على الشّـيوعييّن العرب بقولِها: إنّه إذا كان الطّقسُ ماطِرًا في موسـكو، حمل الشّيوعيّون العرب، في عزّ الصّيف، مَطَريّة ومعطفًا..

لقـد علّـم الشّـيوعيّون العراقيّون رفاقَنا أناشـيد الحزب الشّـيوعي

العراقــي، يذكُرُ برهــوم بعضًا منها، وفــي هذا السّــياق أكتبها كما أنْشَدَها لي وهذا مطلعُها:

"السِّجن ليس لنا

نحن الأُباة

السِّجن للمُجرمين الطُّغاة

لكنّنا سَنَصْمِدُ، نَصْمِدُ وأنّ لنا مستقبلٌ سيخْلُدُ يخلدُ

لنا الغدُ لنا الغدُ لنا الغدُ

حيث تُنْصَبُ المشانقُ، لِمَن!

للمجرمين الطُّغاة"

ونشيد آخر يذكُره برهوم:

"ظُلّام يا ظُلّام نظامُكُم ما يْدُومْ

هذي شعوب الأرض هبّتْ على الظلّومْ

كالعاصفِ الصّخّاب تجتاحُكُمْ كالنّارْ

تقضي على الظّلمِ والاستعمارِ

يزيدُنا الإرهابُ عزمًا ومضا

لنا الغدُ البسّامُ ويومُكُم مضى

أُخُوّةُ الشُّعوبِ هَدَانَا والمنار

تهدي سبيلنَا للانتصارِ"

وقــد رفعوا أيضًا شــعار "نــوري السّــعيد وبن غوريون إن شــاء اللّه يِعْمُون" لأنّهما السّبب في مآسيهم/مآسينا.

أرسلت لجنة منطقة حيفا برهوم إلى شفاعمرو لحضور اجتماع هُناك، وقد طال كثيرًا، وكان عليه العودة إلى البيت، حيث ينتظره يوم عمل شاقّ، مع أنّ الرّفاق طلبوا منه البقاء حتّى الغد، حيث أنّ المواصلات كانت عسيرة في تلك الفترة. لكنّه رأى أن يجرّب حظّه عساه يجدُ حافِلة أو سيارة أجرة تقلّه إلى حيفا. كان حظّه "سيّئًا" فأضطُرّ للبقاء في شفاعمرو ورجع إلى الرّفاق، إلى بيت عائلة صليبا العامر بأهله الأصايل وكرام النّفوسِ، أوفياء وأعزّاء حيث كان لهذا البيت الشّهم الفضل الكبير الكبير في بناء الشّبيبة والحزب هناك، وقد سجّلَ أهلُهُ مواقفَ وطنيّة شجاعة وشريفة وغير مساومَة، فردًا فردًا. دخل بيتهم ونام بينهم. وفي الصّباح حين استيقظ ربُّ العائلة طيّب الذّكر نعيم صليبا، أبو صليبا، وجد أنّ عدد أولاده قد زاد واحِدًا، فنادى زوجته سائلاً: ولِكْ يا هِلانَة قدّيش عدد ولادنا! وعند وقت الإفطار وجد أبو صليبا أنّ برهوم قد بات ليلته تلك، عندهم.

وكان يطلبُ منهم برهوم "لأيش تغلبوا حالكو خبزة وزيتون خلّيها عالماشي" والحقّ يُقال أنّ برهوم لم يشعُرْ قطّ، بأنّه غريبٌ عن هذا البيت، فقد كان متواجِدًا في أفراحهم وأتراحهم. ويذكر أنّه دُعِيَ مع أهل العريس بطرس صليبا إلى النّاصرة لبيت عروسه لـ"قَطْعِ الحَكِي".

في أواسط خمسينيّات القرن الماضي، أحرق عملاء السّلطة مقرّ نادي الحزب الشّيوعي في شفاعمرو. أقدَمَ جبناء السُّلطة على إحراقه ليلاً، كالخفافيش والجرذان التي لا تخرج إلا ليلاً، خوفًا على نفسها.

كانت الشّبهات واضحة وبارزة، لكنّ الدليل القاطع، غير قاطع، حيث لا يمكنُكَ اتّهام أحد أو شخص ما لم تره، فالشكّ يجب أن يُقطع باليقين، والشُبُهات خوّانة، فقد جاء في الحديث الشّريف "إذا رأيت

مثل الشمس فاشـهد". فنظّم الرّفاق مظاهرة استنكارٍ ووعيدٍ بالردّ الملائم حال تبيان الجاني. وبينما كانوا يجوبون شـوارع شـفاعمرو نهـارًا جهـارًا، وخفافيـش وجـرذان السّـلطة مختبئة فـي جحورها وكهوفها، وإذ بشـرطيٍّ برتبة شـاويش، يُقال أنّـه من أصل عراقي يسـير ويتبختر ويمشـي وكأنّه واثق الخطوة، يمشي ملكًا، وسلاحه يُثْقِـلُ جانبه، فطلب برهـوم من الرّفاق عدم الرّد على الاسـتفزاز، انضبـط الجميع، لكنّ الرفيـق الأبيّ أبو أحمد صليبـا طيّب اللّه ثراه وعطّره بالمسك والعنبر، هجم على الشرطيّ لاكمًا، ضاربًا ومُشبِعًا إيّـاه ضربًـا. فأُغْمـى على الشّـرطي وضاع السّـلاح من الشّـرطي، الشّاويش..

وبقي الشّاويش على حاله إلى أن أتت الدّوريّة وأسعفته واعتقلت أبا أحمد، حيث أُفْرِج عنه لاحِقًا.

فـي تلك السّـنة فـاز فـرع شـفاعمرو بالمرتبة الأولى فـي منطقة حيفا من حيث النّشـاط وتوسـيع الصّفوف والفعاليّات وتوزيع صُحُف الحزب.

كانت تُقام اجتماعات شـفاعمرو، أحيانًا، في سـاحة المدرسة ليلاً أو في منطقة الفوّار أو في نادي الحزب.

حكايـة أخرى مـع برهوم كانت في كفر ياسـيف. حين حضر اجتماع الفرع هناك، كعضـو لجنة منطقة حيفا للشّـبيبة، وانتهى الاجتماع في سـاعة متأخِّرة، كان عليه الرّجوع إلى حيفا ليسـتيقظ في اليوم التّالـي باكِرًا إلى العمل، وهنـا أيضًا لم يجد حافِلـةً تقِلّه إلى حيفا، فقرّر الذّهاب إلى مدينة عكّا سيرًا على الأقدام، لكن أحد سكان الكفْرِ حذّره مُعلِنًا عن وجود ضبع ضخم ينتظر السّارين ليختطفهم.

لكـنّ برهوم لـم يعِرْ ملاحظته اهتمامًا، واضطُـرَّ إلى وصولِ مدينةِ

عكّا سيرًا على الأقدام إلى أن وصل محطّة الحافِلات العموميّة، حيث إمكانية وجود وسـيلة نقل لمدينة حيفا أكبر وأسهل. وهناك، وبينما كان ينتظـر الحافِلـة، أوقفه رجل المخابرات "أبو خَضِر" سـائلاً: أين وُجْهَتُـكَ؟ أجابه برهوم: حيفا. لكنّ رجـل المخابرات لم يقتنع فأخذه بسيّارته إلى مركز الشّرطة الواقع على الشّاطئ الغربي لمدينة عكّا، حيث أُطلق سراحه لاحقًا بعد التّحقيق. وحين عاد برهوم إلى محطّة الحافـلات العموميّة، وجد رجل المخابرات إيّاه فـي انتظارِهِ. الظّاهر أنّه كان يفتّش عن فريسة أُخرى...

لكنّنا لسـنا فريسـة لأحد. فلحمُنا قاسٍ ومُرٌّ وعلقـمٌ وينبضُ حيويّةً وحياةً وإخلاصًا. فالحزب الشّيوعي بجبهته الواسعة ساكنٌ في قلوبنا وأفئدتنا وعيوننا ورموشِنا ووجداننا ومُهجتنا وعقولنا وضميرنا، ومن سـكن الحزب منه كلّ هذه الأماكن فهو لا ولن يخاف، لا ولن يهاب لا ولن يهون لا ولن يحزن وهو حتمًا، منتصِرٌ.

فريق المُستقبل من اليسار إلى اليمين: حارس المرمى يحمل الكرة إبراهيم عاقلة، ديب عابدي، سميح عرّام، فريد فرح، رياض عودة (المعلّم)، رفيق كركبي، طوني نقّارة، محمّد الصّفُوري (نِجِم)، إبراهيم تركي، بطرس تركي وشفيق عودة (المعلّم).

الفريق مع بعض المُناصرين، من اليسار إلى اليمين وقوفًا: الشّاعر داود تركي، فؤاد عودة (المعلّم) وتظهر يده اليُسرى مُعَصّبة بالجبس إثرَ كسرٍ جرّاء تزحلقٍ في ملعب رطب بمياه الشّتاء ، رياض عودة (المعلّم)، إبراهيم تركي، ديب عابدي، سميح عرّام، فريد فرح، محمّد الصّفُوري (نِجِم)، ألفرد شحادة وجورج فرح. ومن اليسار إلى اليمين جلوسًا: بطرس تركي، شفيق المعلّم (عودة)، إبراهيم عاقلة، رفيق كركبي وطوني نقّارة.

قبل انطلاق الرّفاق للعمل الحزبي من اليمين إلى اليسار وقوفًا: عبّاس زين الدّين، طيّب الذّكر طوني نقّارة، إبراهيم تُركي، بُطرس تُركي، إبراهيم عاقلة.
الرّفاق من اليمين إلى اليسار جلوسًا: طيّب الذّكر ديب عابدي، محمّد الحاج عبد الهادي والفنّان عبد عابدي.

من اليمين إلى اليسار في مظاهرة للحزب الشّيوعي: طيّبا الذّكر أبو صابر صليبا وأبو أحمد صليبا.

طيّب الذّكر أبو صليبا وابنه موريس صليبا في غابة الجيش الأحمر، إحتفالاً بالنّصر على النّازيّة.

8

ابتهجت قرية عيلبون الجليليّة يوم الجمعة 2007/2/9 حين احتضنت الاحتفـال المُهيب للرّفاق بصحيفتهم الغـرّاء "الإتّحاد"، ونتمنّى لهذا الاحتفال أن يكون سنويًّا وناجحًا بهذا القدر الّذي كان فيه أو أكثر.

فقد اسـتمرّت الوفود والجمـوع الغفيرة بالتّوافد إلـى قاعة "أبو زيد للأفراح" حتى ساعات متأخِّرة بعد بدء الاحتفال، كالنّهر الزاخر والوافر والزّاهر والباهر، أتوا من كل حدب وصوب ليقولوا كلمة وفاء ومحبّة لصحيفة "الإتّحاد" الّتي لم ولن تتنازل عن شـعارها "يا عُمّال العالم إتّحِدوا"، ليبايعوها مرّة تلـو الأخرى وليبايعوا الحزب وللمرّة المليون أنّهم على العهد، فكان الحضورُ حضورًا يكسر ويحطّم كلّ التّوقّعات، حتّـى توقّعات المُنظّمين، ليقولوا لصحيفة "الإتّحاد" العروس ولأهل العروس، لحزبها الشّـيوعي: نحن معـكِ، ونتمنّى لكِ البقاء والعطاء والسّـناء ولعريسـك الرفيق توفيق طوبي ولإشبينه الرفيق د. أحمد سعد أسرع الشّفاء، ليسمُوَا بِكِ إلى العلياء علو السّماء.

تلك الصّحيفة الّتي عرفتها عيلبون والجليل والمثلّث والنقب والسّاحل وعرفها أيضًا وطننـا العربي والعالم أجمع ورأى العالم فيها صحيفة

التّحدّي والصّمود والمُقارعة في عُقْرِ دارهم.

كَبُـرَتْ وترعرعَتْ أجيالٌ وأجيال على قراءة صحيفة "الإتّحاد" وكَبُرَتْ الصّحيفــة بهم فَرَعَتهم وَرَبَّتهُم على العزِّ والشّــهامَةِ والكرامَةِ فلم تعرف الهوان قطّ، من أيام التّهديد "الدّيموقراطي" بإقفالها أو بإلغاء مقالات أو حذف أجزاء مكتوبة من مقالات وقد نفّذت تهديداتها وحتّى أيام التوزيع السِّــرّي. فقد حفظت لشــعبنا الباقي فــي وطنه الّذي لا وطن له ســواه، الكلمة العربيّــة الأصيلة، الحُرّة والشّــجاعة لتلاطم المخرز ونجحت.

فمنذ بدء الصّحيفة في الصّدور في العام 1944 إلى أيّامنا هذه وهي علــى العهد كما نحن على العهــد دائمًا. نَعْهَدُهــا ونُعاهِدُها ونَعِدُها أن نبقــى لهــا أوفياء أبدَ الدَّهْر. وأن نبقى لهــا عبيدًا مُخلصين، فمن علّمنــي حرفًا كنتُ له عبدًا فكــم بالحريّ حين يعلمــك الكلمة، وأيّة كلمة وما أدراك ما الكلمة، الكلمة هي الّتي كانت في البدء.

الكلمة التي كتبها رفاقنا وحافظت على لغتنا وأدبنا وأخلاقنا وعلّمتنا الأدب والتّاريــخ والجغرافيا وفتّحت آفاقنا إلى الأبعد، إلى المُســتقبل البسّــام باعِثــةً فينــا الأمل بالتّقــدم والنّجــاح. خطّــوا كلمتهم على صحيفة وأســموها "الإتّحاد" لأن قوّتَنا في اتّحادِنا واتّحادُنا في قوّتِنا واتّحادُنا قُوّة. وبقينا وبقيت "الإتّحاد" من جيل إلى جيل، لأنّها الماكثة في الأرض وتنفع النّــاس، وأمّا الزّبد فيذهب جفاءً، ولتكون النّاطِقة الرّسميّة باسم الحزب الشّيوعي في بلادنا.

فهــي منبرنا وقلعتنا ومعلّمتنــا وكلمتنا، وعلينا أنْ نَقُــومَ لَها لِنَفِيها التَّبْجيلَ لأنها كادَتْ أن تكونَ رسولاً، أو أنّها صارت رسولا.

كان برهــوم ورفاقــه يوزّعــون صحيفــة "الإتّحــاد" اســبوعيًّا وعلى مرحلتيــن، خلال يومي الجمعة والسّــبت، مع أنّهــا كانت تصدر يوم

الجمعة. ففي يوم الجمعة منْ كلّ أسـبوع يقسِّمُ الرّفاق مدينة حيفا إلى مناطق وأحياء وشوارع لينطلقوا بعدها لتّوزيع الصّحيفة، لضمان وصـول الصّحيفة وكلمة الحـزب إلى كلّ بيت حيفـاويّ. طبعًا كانت الجريدة توزّع بعـد الظّهر، بعد عودة العمّال والشّـغيلة والموظّفين إلـى بيوتهم، ومنهم رفاقنا. خاصّةً وأنّ يـوم الجمعة هو أقصر يوم عمل في الاسبوع.

لم يقتصر الأمر فقط على توزيع الجريدة، بل شمل أيضًا دخول كلّ بيوت حيفا قدر المُستطاع، والتّواصل مع النّاس لمعرفة نبض النّاس وحِسِّـهم، أو كما يقول رفاقنا "نبض الشّـارع". وكانت تدور نقاشات وجدالات وتفسـيرات حول هذه القضيّة أو تلك. وحول موقف الحزب منهـا. وأحيانًا كان الرّفاق يرون الحاجة إلى تنظيم اجتماع شـعبيّ أو اجتماع حيّ نظرًا لأهميّة الموقف أو الاحتجاج.

وفـي اليوم التّالي كان الرّفـاق يوزّعونها في قرى منطقة حيفا، من جسـر الزرقاء والفريديس، إلى الدّالية وعسـفيا حتّى إبطن وبسمة طبعون، لتشـمل أيضًا تجمّعات اليهود الشّرقيين وعلى وجه التّحديد العراقييـن، قُرّاء العربيّة. صحيح أنّ يوم السّـبت هـو يوم راحة من عمل شاقّ اشتغلوه ستة أيام، لكن راحة الرّفاق لم تكتمل إلا بإيصال كلمـة الحزب المكتوبة في صحيفة "الإتّحـاد" إلى تلك البيوت، بدون تعـب أو كلل أو ملـل، حتّى أنّ جارة برهوم في حيّ وادي النّسـناس سـألت والدته أمّ داود رحمة اللّه وصلواته عليها يومًا وبإعجاب "إسم اللّه عليه إبنك، قدّيش بربح من بيع الجرايد، إسـم اللّه عليه ماسِك صَنِعْتين".

كان اسـتقبال السّـكان في القرى المجاورة للرّفـاق جميلاً بالتّرحاب وحُسْـن الوِفادة والقهوة أحيانًـا، وأحيانًا بالتّهديـد والوعيد إذا عادوا لزيارة حيّهم مرّة أخـرى، لكنّ التّهديد لم يثنهم عن إعادة الكَرّة في

التّوزيع. وكان بعض السّـكان يسألونهم عن وجود مجلات أو صُحُف أخـرى معهم ظنًّا منهـم أنّهم، مُجَرّد بائعي صُحُـف. لكنهم أصبحوا يعرفونهم كُلّما هَلّ هلال الرّفاق على قريتهم، أيام السّـبت. وكانت تُوزع مع صحيفة "الإتّحاد" مجلات "الغد" و"الجديد" مرّة في الشّـهر. وذات مرّة سُـئل برهوم حين اشترى منه مواطن من القرية الصُّحُف الثّلاث "قدّيش بدك على هالمشروع"..

مرّةً، من تلك المرّات الّتي كان ينتقل فيها برهوم ورفاقه من جسـر الزّرقاء إلى الفريديس مشـيًا على الأقدام، وجد على الطّريق بعضًا من النقود المعدنيّة على الأرض، فقضى غالبيّة وقته وخلال طريقه إلى الفريديس يُفتّش عن نقود معدنيّة أخرى علَّ حظّه يكون جيّدًا، حتـى وجد نفسـه في قريـة الفريديس ولـم يجد غير ما سـبق أن وجده.

وصـل خبر هجـوم عُملاء السّـلطة على مقـرّ الحزب فـي النّاصرة، إلى الرّفاق في حيفا، حيـث اتُّخِذت التّدابير اللازمة والحيْطة. وكانت أوامـر القيادة أنّـه إذا تمّ الهجوم علـى المقرّات عليهـم أن يخرجوا منهـا مهزومين أبشـع هزيمة، هزيمة نكـراء، وأن يُلقن رفاقُ حيفا العمـلاءَ نفس الدّرس الّذي تلقّوه من سـواعد رفـاق النّاصِرة. فمن العيـب والعار أن يدخـل العملاء مقرّات الحزب ومـن العيب والعار أنْ يخرجـوا منهـا دون أنْ "تُعَلِّم العِصِي على جنابهـم" حتى لا يعيدوا الكَـرَّة مرّة أخرى. حيث يتوجّب علـى الرّفاق منعهم من الدّخول أوّلاً، ولكـن إن دخلـوا فعلى الرّفـاق تلقينهم الدّرس كمـا يجب. لقد كان أوّل موقـع يجب حراسـته في حيفـا هو مطبعة "الإتّحـاد". وفي هذا السّـياق يتذكّر برهوم طيّب الذّكر اسـكندر عطيّة (أبو كمال) البحّار "الزْكِرت" الّذي يُشَبِّهه برهومُ بأبطال البحر الّذين كتب عنهم الكاتب العربي السّـوري والشّـيوعي حنّا مينه. فعلاً كان "أبو كمال" الشّجاع

مفيـد الوحش، فـي "نهاية رجل شـجاع". فقد كان يسـهر ويقضي لياليـه فـي مطابع "الإتّحـاد"، ويأتي برهـوم ورفاقه من الفرسـان الأبطـال الميامين إلى "أبي كمال" ليسـامروه وليقفـوا معه أمام أي اعتداء يريد أن يطال "الإتّحاد". فقد وقف طيّب الذّكر اسـكندر عطيّة بجنزيره الملفوف برصاص الصّيّادين حول زنده متوعّدًا من تُسَـوِّل له نفسه النَّيل من المطبعة أو الحزب. ويُذكر أنّه رفع القسم الخلفي من سـيّارة الشّرطة حين أتى رجال الشّرطة لاعتقال الرّفاق، وبقيَت سيّارتهم مرفوعة من الخلف وعجلاتها الخلفيّة تراوح مكانها، محاولاً بهـذا منع الاعتقال أو تأخيره ريثمـا تترتّب أمور الرّفاق المُعتقلين أو ترتيب حيلةٍ ما لتحريرهم.

التقيتُ يوم الجمعة 2007/2/9 في احتفال "الإتّحاد" المُهيب، الرّفيق أبو يوسـف إسـطفان خوري، الجندي المجهول كمـا عرفوه لي، أبن قرية الدّامون المُهجّرة والسّـاكن حاليًا في شـفاعمرو، فحين احْتُلَّت الدّامون وشُـرِّد أهلها كان اسـطفان ابن السّـابعة عشرة يعمل في الحقل. فقد ترك المدرسـة وهو في الصّف الرابع ليُعاون أهله وبيته فـي معيشـتهم، وكما قال: "لم يعـرف فكّ الحـرف". وتابع يقول إن "الإتّحاد" كانت مدرسـته الابتدائيّـة والثانويّة والجامعيّة ومنها تعلّم "فـكّ الحـرف" فكَبُرَ معها وكَبُرَت مَعَهُ وَبِهِ وأخلـص ولا يزالَ مُخْلِصًا لهـا حتّى اليوم ويقرأها من الصّفحة الأولى إلى الأخيرة حتّى الأبراج الّتي لا يؤمن بها، كان يقرأها، منتهيًا بقراءة كلمة صباح الخير.

ومُنذ بدايـة ربيعه الحزبيّ وهو يوزّع صحيفـة "الإتّحاد" وكان يوزع حوالـي ثمانين عددًا أي أنّه كان يدخلُ ثمانيـن بيتًا. وقد وصفه أحد قادة حزبنا البارزين أنّه "قُرْميّة" الحزب في شفاعمرو، هذا الشّيوعي حتّـى النّخاع بَقيَ على العهد مُناضِلاً من أجل وحدة وتقدّم وتوسـيع صفـوف الحـزب بجبهتـه العريضـة ومن أجـل عودته وعـودة أهله

وشــعبه إلى الدّامون والبروة وصفّورية وســحماتا وأم الزّينات وكفر لام .. وهذه مرحلة من مراحل عملنا ونشــاطنا لنصل بعدها شاطئ الأمان، شاطئ الرّفاه والعدالة الاجتماعيّة والمساواة.

٩

كان برهوم يعمل في قسم الحدادة والميكانيكيّات في كراج إخوان أدلر (אחים אדלר) في منطقة السّعادة، "التشيك بوست". وكان يعمل معه عمّال من مدينة شفاعمرو. فقد كانوا حِرَفيين وتِقَنِيين مُمْتازِين. وكان صاحبُ العملِ يعرِفُ أنّ لديه كنزًا لا يُعوَّض، ويتعامل معهم مقدِّرًا عملهم وتفانيهم ومسؤوليّتهم تجاه الحِرفة والعمل. كانت حياتهم العمّالية هادئة في العمل وبانسجام شبه تامّ مع صاحبه، إلى أن زارت مكان عملهم فرقة من "الهستدروت" قلبت هدوء المكان إلى عاصفة، حيث راحت تُطالِبُ صاحب العمل بطرد العمّال العرب وبتبديلهم بعمّال يهود يمنيين. لاحظ الخواجة أدلر، أنّ "القادمين الجُدد" من اليَمَن السّعيد لا يعرفون الشّاكوش من المنكوش ولا الإزميل من البرميل، فرفض الانصياع أو حتّى الإصغاء لهم. فأجابهم: "آتوني بمثل هؤلاء العمّال الّذين يعملون عندي وسأُطيعُكُم وأعمل ما تريدون وتطلبون". وعندما لم يلبِّ المُتعهّدُ طلبهم، قامت تلك الفرقة من "الهستدروت" وضربت الخواجة أدلر، لكن برهوم وأصحابه الشّفاعمريين وجدوا أنفسهم يدافعون عن

صاحب العمل، ضدّ نقابة العُمّال، "الهستدروت"، كيف لا، وهو الّذي منع طردهم من عملهم في كراجه.

بعدها انتقل برهوم ليعمل في محددة "بار أيتان" (בר איתן) حيث قرّر أنْ يكون حدّادًا. اشتغل معه في هذه المحددة عمّال من اليهود والعرب.

وفي يوم من الأيام زارتهم فرقةٌ أُخرى من "الهستدروت"، لتشرح لهم دروسًا في الصّهيونيّة، كيف قام "الصّهيونيّون بتحرير الأرض" وجعْلِها لشعبٍ بلا أرض حسب مقولتِهم الكاذبة "أرض بلا شعب، لشعبٍ بلا أرضٍ"، وطرد عرب مرج ابن عامر من بيوتهم وتوطين اليهود وتسكينهم في تلك البيوت. بعد هذا الشّرح المُسْهَب طلبوا من العمّال التبرّع لصندوق "ياهف ماغن" (יהב מגן)، وهو عبارة عن قرض يؤخذ من العمّال ليسهم في المجهود الحربي والاستيطاني الإسرائيلي، على أمل أن يُعاد المبلغ بعد فترة مع فائدته.

فقال برهوم كلمته أمام مُمثّلي "الهستدروت" بأن: "لن نعمل من أجل الحرب ولن نُعطِي معاشنا للحرب، فالمعاش لا يكاد يكفي بمحدوديّته إعالة فردٍ واحدٍ في عائلة، فكم بالحريّ لعائلة كاملة"، مُعلنًا لهم أنّه ضدّ الحرب وأنّه مع السّلام، ويكفي أن يُلْزِموا ربّ العمل، المُتعهّد، بدفع شيءٍ من أرباح يومٍ واحدٍ والّتي تُعادل أرباحَ ومعاشات عُمّاله، "إذا كنتم بحاجة إلى المال". ردّ عليه مسؤول "الهستدروت" في الفرقة بأنّه يوجِّه حديثه وطلبه للصّهيونيين وليس لمُعادي الصّهيونيّة، مُركِّزًا على العداوة للصّهيونيّة لغاية في نفسِهِ ونفسِ يعقوب. لكنّ الرّدّ أتاه من عامل، يذكر برهوم أنّ اسمه كان أبو طبول، وهو مرّاكشيّ الأصل، وكان ينتمي لحزب الحيروت، حزب يميني ومُعادٍ للعرب، فقد قال لهم: "نحن ندفع التّبرُعات وأنتم تسرِقونها (وأشارَ إلى الفضيحة الّتي كانت تملأ وسائل الإعلام

فــي تلك الفترة، فضيحــة عاموس بن غوريون)، فنحــن قرّرنا عدم التّبــرّع". موقــف عُمّالي وطبقــي صحيح من نظام اســتغلالي! وهنا فشــل الحديث الصّهيونيّ، أمام وعي العُمّال. ولم ينجحوا في كَسْبِهِ أو كسرِهِ.

فــي تلك الفتــرة مــن خمســينيّات القــرن الماضي، كانــت فضيحة عاموس بن غوريون، ابن رئيس الحكومة دافيد بن غوريون، آنذاك، والّذي كان يشــغل منصب نائــب القائد العام للشّــرطة، يحيزقيئيل ســاهَر، فقد نشَرَت يومها (عام 1955) صحيفة "هذا العالم" العبرية خبَــرًا مفاده أنّ لنائب قائد الشّــرطة، عاموس بــن غوريون تجاوزات قانونيّــة كرشــوة وابتزاز ومحســوبيّات يقوم بها من خــلال أصدقاءٍ لــه، يُعطيهم امتيــازات خاصّة، باســتعمال العملــة الصّعبة، المارك الألماني من تعويضات الحكومة الألمانيّة لمُتضرّري النّازيّة، لشــراء أثــاث وحاجيّــات لتأثيــث فنادق إســرائيليّة لتكــون على "المُســتوى المرمــوق والمطلوب"، حيث كانوا يُضاعفون الأســعار والمُشــتريات وبالتّالــي تتضاعف أرباحهم، والمَخْفيّ كان أعظم، مُسْــتَغِلاً منصبه ومنصــب والده لتمريــر مكائده. لكنّ "العدالة" أخــذت مجراها وبرّأت ساحة عاموس بن غوريون، الأب والابن وأصدقاءه، وغُرِّمَت مجموعة "صَفّ المُتطوِّعين" (שורת המתנדבים) الّتي كشفت الفضيحة. مجموعة "صفّ المُتطَوِّعين" هي مجموعة من المُتطَوِّعين، تأسّست في حينه مــن أجل الحفاظ على طهارة عمل وأداء المؤسّســة الحاكمة، لكنّهم فشِــلوا في الحفاظ على طهارة المؤسّســة وفيما كانوا يصْبُون إليه فما يقوم على الباطل هو باطل. فبقيت المؤسّسة دون طهارة.

بعدهــا أصبح صنــدوق "ياهــف ماغــن" (יהב מגן) حكوميًّا ورســميًّا وقَسْــريًّا، يُدفع ويُنتزع مُباشــرة من معاش العامــل، وهو عبارة عن قرض قسْــري يُؤْخَذُ من العامل على أن يُعاد إليه بعد عشــر ســنين

مـع فائدته! بعد هذه الجلسـة وجـد برهوم في انتظـاره المُهندس "عوفاديـا" يحمل بيده مكتوب فصل من العمل. فقد أعلن المُهندس عن أسـفه لِمُحتوى الرّسـالة الّذي يتضمّن الفصل، حيث أنّه لم يكن من صاحب العمل بل من المسؤولين في "الهستدروت".

كانت "الهسـتدروت" منذُ إقامتهـا، في العـام 1920، تنظيمًا مُعاديًا للعرب في فلسـطين، أصحاب الأرض الحقيقيين، ونجحت في نصب الشّـرك والشّـرخ بين العُمّال العرب واليهود، الّذين كانت لهم قضايا وهموم مشتركة ونضال مُشترك كقضيّة سكك الحديد. وعلى ضوء المُمارسـات الصّهيونيّة ضدّ العمال العرب، من قِبَل "الهسـتدروت"، أُقيمت "جمعيّة العمّال العرب" رسـميًّا في فلسطين في العام 1923، وكان للشّـيوعيّين فيهـا دورٌ مركـزيٌّ هـامٌّ وكبيـر. كانـت "جمعيّة العمّـال العرب" أمميّة بتركيبتها، حيـث كانت تضمُّ عمّالاً من الوطن العربـيّ وغيـره فقد ضمَّت عمّـالاً قبارصة، يونانييـن وأتراك، ممّن جـاءوا إلى بلادنا طلبًا للعمل والرِّزق. ونتيجة لسـوء أداء "الجمعيّة"، عُقِـدَ فـي العـام 1945 في يافـا مؤتمرٌ للعمّـال العـرب بدعْوَةٍ من الشّـيوعيين وحضره ٪80 من أعضـاء "جمعية العمّال العرب"، وبهذا بدأ "مؤتمر العمّال العرب" بقيادة الشّـيوعيين يقود النِّضال العمّاليّ في فلسطين، وبشـرعيّة تامّة. حيث قدّم لأعضائه التّأمين الصّحيّ وقام بتأسيس تعاونيّات تمنح الأعضاء احتياجاتهم بأسعار مُخَفّضة كمطعم "قوت الكادحين" في شـارع الخوري بحيفا، الّذي كان الرّفاق يديرونـه كالرّفيـق عباس زين الدّين (أبو عصام) وميشـيل كركبي وطيّـب الذّكـر الرّفيق سـركيس أبريان الذي اختـار أن يقضي بقيّة حياته في أرمينيا، ومصنع البلوك في بستان الشّيوعيّة في حيّ وادي النّسناس الّذي كانت تديره ثُلّة من الرفاق كطيّب الّذكر الياس جمّال (أبو أنور) والرّفيق أديب شُرّش، والفرن في شارع الخوري ودُكّان آخر

في شارع ماير، فضلاً عن تأمين العمل للعُمّال وتأمينهم من إصابات العمل. لكنّ هذا لم يلقَ استحسان "الهستدروت" الّتي بادرت لاحِقًا إلى العمل على تأسيس "إتّحاد عمّال فلسطين" كجسم نقابي بديل، لِضرْب ومحاربة نشاط "مؤتمر العمّال العرب" بقيادة الشّيوعيين.

بعد الاحتلال استمرّ "مؤتمر العمّال العرب" بقيادة المسيرة العمّالية حيث عُقِد مؤتمرُهُ الرّابع في النّاصرة في ظلّ الحكم العسكري، وكانت غالبية قيادة المؤتمر رهن الاعتقال، وقد انتُخِب طيب الذّكر سليم القاسم وهو خلف قضبان السجن، أمينًا عامًّا "لمؤتمر العمّال العرب".

نتيجة لقوّة الشّيوعيين المُتزايدة قرّرت "الهستدروت" عام 1953 فتح باب العُضويّة للعمّال العرب في النّقابات المهنيّة لكنّ العضويّة لم تكُن كامِلةً، إذ حُرِم العمّال العرب من الانتخاب أو التّرشيح. والحقيقة أنّ القرار دخل حيّز التّنفيذ في العام 1960.

بعد العام 1966 وفي أعقاب نجاح الشّيوعيين في الانتخابات لعضويّة "الهستدروت" وبفضْلِهم هُمْ، تغيّر اسم "الهستدروت العامّة للعمّال العبريين في أرض إسرائيل" إلى "الهستدروت العامّة للعمّال في أرض إسرائيل"، وبعده إلى اسم "الهستدروت العامّة للعمّال في إسرائيل" ليضُمّ أيضًا العمّال العرب.

كان برهوم كغيره من الشّيوعيين يدفع ثمن مواقفه. حيث كانت قائمة المصانع وأماكن العمل المحظور عليه دخولها، طويلة. وقد كانت حِجَجُهُم واهية ومفضوحة. مثالاً لا حصرًا، يُطرد العاملُ بعد نقاش سياسيّ أو حقوقيّ أو عُمّالي مع صاحب العمل خلال عمله أو يُرْفَضُ طَلَبُ الدّخول إلى هذا المصنع أو ذاك مُنذُ البداية، بحجّة تخصيص وظائف شاغرة للجنود بعد التّسريح أو أنَّ الطّلب قُدِّم

مُتأخِّـرًا لأنّـه "قد قبلنا من جـاء قبلك"، أو أنَّ العاملَ العربيّ أُرسِـلَ لمـكان العمل خطـأً من مكتب العمـل لأنّ العمل لا يُلائمـه أو أنّه لا يُلائم هذا العمل، مع أنّ قدرة برهوم التّقنية كانت مُمتازة بشـهادة البعيد قبل القريب، وبشـهادة أصحاب العمل، الّذين كانوا يُعْلِنون له أنّ الأمر "ليس بيدنا". هكذا وجد نفسـه يعمل في صحارى النَّقَب أو قـرب إيلات، ليعود إلـى بيتِهِ في حيفا مرّة في الأسـبوع أو حتّى كلّ أسبوعين ليعودَ عائلته على أن يعودَ إلى العمل في اليوم التّالي.

ويذكـر برهوم أنّ ابنه خالد حين أنهى الصّـفّ الثّامن، توجّه لمكتب العمل للشّباب (الحكومي)، ليعمل خلال العطلة الصّيفيّة، ليكون لديه بعضًا من مصروف الجيب لشـراء حاجيّاته الدّراسـيّة، فأُرسِل للعمل فـي مصنع تكرير النفط في خليج حيفا، كغيـرهِ من التّلاميذ، فكان حظّه كوالده، "من شـابه أباه فما ظلم"، كلّ الّذين أُرسـلوا، دخلوا إلا خالدًا، فقد أخبروه حال وصوله أنّه أُرسِـل خطأً، كذا، مع أنّ خالد كان من أوائل الّذين وصلوا المصنع.

علينـا أن نُعيـد لخطابنـا العُمّالي صِدْقـه ومصداقيّته ولْنُعيـد ونَرُدَّ خطابَنَـا إلينا، إلى مكانه الطّبيعـي، فنحن الحزب الّذي له وجه واحدٌ، لا وجهـان، وجهٌ نقـيٌ وصافٍ. لأنّ الخطـاب العُمّالـيّ لا يتناقض مع الخطـاب القومـيّ الصّحيح ذي الرؤيـة والرؤيا الأمميّة. لِنَنْشـط في النقابات العمّالية وانتخاباتها ليكون لنا تمثيلٌ وحضور كبير وجلِيٌّ.

ولنتجنّـد للمعـارك الانتخابيّـة لـ"الهسـتدروت" كمـا نتجنّـد لجميع المعـارك الانتخابيّة الأخرى، إن كانت للمجالس البلديّة أو للكنيسـت أو أيّة معركة شعبيّة أخرى من أجل إنجاحها. فنحن بخطابنا الوطني والقومي والعمّالي والطّبقي والأممي صخرة متينة وقويّة، ومن ظنّ أنّ صخرتنا، بيتنا، واهِن ليتذكّر ما قاله الأعشى:

"كناطح صَخْرةٍ يومًا لِيُوهِنَها فلم يَضْرها وأوهى قرنَهُ الوَعْلُ"

تمثيــل نقابيّ قويّ هو قوّة لحزبنا ورافِعــةٌ للطّبقة العاملة من أجل نيل حقوقهــا ومســاواتها، وهذه حلقة أساســيّة ومفصليّــة ومُهِمّة فــي نِضالنا. فحيــن تكبر وتنمو قوّتنا يقوى ويتعاظــم أداؤنا ويزداد مفعولها وتزدهر فعّالياتنا النِّقابيّة ويسمو تأثيرنا.

ولتبــق راياتنا العُمّاليّة، رايات الأول من أيّــار الحمراء وفقط الحمراء خفّاقة ومرفوعة عالِيًا رفرافة فوق "الجبال الشُّمّ أوكار النّسور".

1. المعلومات عن "الهستدروت" مُستقاة من محاضرة الرّفيق جهاد عقل قبل عدّة سنوات في النّاصرة.
2. أتوجّه بالشّكر الجزيل للرفيق عبّاس زين الدّين (أبو عصام) لاستجابته لطلبي بإرساله صورًا مِن أرشيفه الخاصّ.

10

إتّصل بي، الرّفيق فيكتور رزق، أبو جرير، شـاكِرًا على ما يُكتب من ذكريات ومشـكورًا على تنويهه، مستجيبًا لطلبي حول أسماء الرّفاق الّذيـن لم يذكـر برهوم أسـماءهم، حيث أنّـه تعرّف علـى الرّفيق الّـذي يقف بجانبه في الصّـورة وهو الرّفيق أفيغـدور الّذي وجد أنّه مـن الاصْوبِ والأصـحّ العودة إلى وطنه الأم. ويُذْكَر أنّه في سـنوات الخمسين عاد أكثر من مئة ألف يهودي إلى أوطناهم، مُقتَنِعين بهذه الخطوة، أنّهـا الحلُّ الأمثلُ. وتعرّف برهوم لاحِقًا على رفيق آخر في الصّورة هو الرّفيق مُطلق شُـكري والذي يسـكُنُ في ألمانيا ويعمل هُناك ممثّلاً في مسارح ألمانيا.

الرّفيـق فيكتـور رزق مـن رفـاق النّاصـرة، كان يعمل في سـنوات الخمسـين نجّارًا أجيرًا في مناجر حيفا ويسـكن المدينـة أيّام عمله ليعـود إلـى بيته فـي النّاصرة آخر الأسـبوع. لكنه اسـتمرّ في عمله ونشاطه الحزبيّ في حيفا كما في النّاصرة وقد تأقلم جيّدًا في حيفا، حتّى أنّه كان لبرهوم إشبينًا في عرسه.

إبّان الحرب الكوريّة عُرِض في سـينما "أوريون" فيلمٌ أمريكيٌّ مُعادٍ،

بطبيعة الحال، للجمهورية الشّعبيّة في كوريا، وتدور أحداث الفيلم حول الحرب الكوريّة. كان برهوم ورفاقه يشاهدون الفيلم داخل صالة العرْض، وحين استفزّتهم أحداث الفيلم من غبن وتحريض وتزوير وتسويف وإجحاف بحق الجمهورية الشعبية الكورية، تظاهر الرّفاق ضدّ أحداث الفيلم داخل الصّالة في المبنى وخلال عرضِهِ ، الأمر الّذي دعا المسؤولين عن العرض إلى دعوة الشّرطة لنجدة الموقف وطرْد "المشاغبين". حضرت الشّرطة واعتقلت طيِّب الذّكر الرّفيق فريد فرح، ورفيقًا آخر يُدعى فيليب يعقوب الّذي حين رأى رجال الشرطة أطلق صوتًا مُحَقِّرًا، قائلاً "بوز للشرطة". اعتقلتهما الشّرطة ووضعتهما في سجن، قرب الجامع الكبير الواقع شرقي حيفا، حيث كان هناك سجنٌ ومخفرٌ. مرّ برهوم قرب المخفر وصفّر صفّارةً عرِفها الرّفيق فريد لأنّها كانت صفّارة خاصّة بثُلّتهم الرّفاقيّة ونادى برهومًا طالِبًا منه إحضار منشفة وثياب خصوصيّة له. ذهب برهوم وأحضر حاجيّات رفيقهِ، وعرّج بعدها على مطعم "قوت الكادحين" لإعلام الرّفاق بما حدث، وإذ برجال الشّرطة يدخلون المطعم طالبين من الحضور إبراز بطاقات الهويّة، ولم تكن بطاقة برهوم معه، فطلب منهم أن يأتوا معه إلى البيت لإبراز بطاقته هناك، فذهبوا معه إلى بيتهم في شارع ياقوت، لكن والدته أم داود لم تكن هُناك ألأمر الّذي دعاهم إلى اعتقاله. دخل المعتقل قرب الجامع الكبير، حيث يتواجد هناك رفيقه فريد، فأطلق برهوم صفّارته مرّةً أُخرى فاستغرب رفيقه فريد وسأله صائحًا بِأعلى صوتهِ: "أين أنت يا برهوم؟" فأجابه برهوم: "أنا مسجون وأحضرت لك ثيابك الشّخصيّة، شخْصِيًا لداخل المُعْتَقل". في اليوم التّالي أتى أخوه داود برفقة الرّفيق طيّب الذّكر نيسيم حزقيئيلي، "يهوديّ ابن عرب"، لتحريره بكفالة بعد أنْ أحضرا بطاقة هويته، لكن أمر اعتقال برهوم لم يرُق للرفيق نيسيم، حيث أعلن استنكاره للاعتقال سائلاً رجال

الشـرطة: "بأيّ حقٍّ تعتقلونه وبأيِّ حقٍّ تُشَغِّلونه وهو قيد الاعتقال وهذا الأمر لا يجوز قانونيًّا". فأتاه من الخلف شرطيٌّ، وغدره بصفعة حاقِدة غدّارة، ما زال برهوم يذكرُ وَقْعَها على رفيقه مُتألِّمًا ومُتأسِّفًا لما تسبّب من ألمٍ لرفيقه.

حادثــة أخرى مشــابهة، نوعًا ما، عن رفيق آخر هــو الرّفيق إبراهيم فحماوي. لقد وَجَدَ الرّفيق إبراهيم فحماوي، أبو وائل، أبن أمّ الزّينات المُهجَّرة، بعد أن طَرَدَ الاحتلال أهل بلدتِه وهجَّرهم، نفسَــه يسكنُ قرية طمرة ويعمل هناك مدرِّسًــا. لكن مواقفه الوطنيّة ومعارضته ورفضه للضّيم وللاضطهاد اللاحق بأبناء شعبه حالت دون أن يستمرّ في عمله ووَجَدَ نفســه معتقلاً، بتهمةٍ حيكت له. فطلب الرّفيق طيّب الذّكر غسّان حبيب، سكرتير المنطقة، من برهوم الذّهاب إلى طمرة لإعلام أهلــه بالاعتقال وإحضار حاجيّاته، رغم أنّ برهوم كان عائدًا لِتَوِّهِ من عمله الشاقّ. فذهب إلى حانوت ستيراتي اليوناني واستأجر منــه درّاجة هوائيــة منطلِقًا من هناك إلى قرية طمــرة. حين وَصَلَ القريــة أعلــم عائلته بالاعتقال وجَلَبَ معه حاجيّــات أبي وائل، وكان الليل قد أرخى سدوله، وكانت درّاجة برهوم الهوائيّة المُسْتأجرة دون أضواء. وكان في حوزته فانوس يضيء بعد شــحنه ببطاريّة، وكانت عملية إطفاء الفانوس وإشعاله متعاقبة وبوتيرة سريعة واحدة حتّى يُــرَى في العتمــة، على الطّريق. وحين وصل مصنــع تكرير البترول "الرِّيفاينَــري"، التقى صُدفةً بطيّب الذّكر الرّفيق ميشــيل عون (أبو زوزو) يقــود ســيّارته، فصاح ببرهوم أن يتوقّــف ليقِلّه إلى حيفا مع درّاجته بســيارته، مُوصِلاً إيّاه مقرّ الحــزب، إلى قاعة "مؤتمر العُمّال العرب" الواقع في حيِّ وادي النِّسناس.

وفي اليوم التّالي ذهب برهوم والرّفيق عودة الأشــهب، "أبو عدنان" إلى أبي وائل الّذي كان مُعتقَلاً في سجن الدّامون. حيثُ سُجن الرّفيق

إبراهيـم فحماوي مُدّة عشـر سـنوات، تحـرّر بعدها ليبقى شـريفًا ومُخلِصًا وأمينًا لشعبه ولمبادِئ حزبه إلى يومنا هذا.

في إحـدى الصور (يُنظر ملحـق الصور) يظهر أبو وائـل حامِلاً علم الحزب الشّـيوعيّ في مقدِّمة مظاهرة الأوّل مـن أيّار بتاريخ 4/30/ 1988 والّتـي جابت شـوارع مدينة حيفا بِدءًا بوادي النِّسْـناس، وإلى جانبه رفاق الشّـبيبة الشّـيوعية بأعلامها الحمـراء والرِّفاق بطرس سـمعان، أبو خليل، وطيِّبات الذّكر نظلة عطيـة، أم كمال، والرّفيقة إيتيل كلنغر.

وفـي كل مرة تُذكر فيها الرفيقة نظلة عطيّة (أم كمال) وخاصّة بعد رحيلها الأبدي نذكر رحيل وغياب رفيقة أبيّة شهمة مُخلصة مُناضلة شّريفة وعفيفة حافظة الأسرار.

لقـد كان تكريمهـا فـي دارة مؤتمـر العمّـال العـرب في حـيّ وادي النِّسـناس، دارة الشّـيوعيّين وأصدقائهـم الأحـرار، الذيـن حضروا متكاتفيـن ومتكاثفيـن وموحَّديـن لذكراهـا محنيّي الهامـات، تلك الهامـات المرفوعة أبـدًا والقوام المُنتصبة الشّـامخة جـاءوا لإحياء ذكـرى رحيل الرّفيقـة المُناضلـة، الرّفيقة الّتي حفظت سـرّ حزبها ورسـالته ولم تبحه للمُحقّقين يوم اعتقالها في ذلك العام المشؤوم عام نكبتنا حين كانت المرسال بين الشّيوعيّين في فلسطين ولبنان وسـوريا. جاءوا لإحيـاء ذكرى الرّفيقة المُناضلـة الّتي اختارت حزبها ورسالته والرّحيل إلى حيفا على أن تترك الحزب لتبقى في بلدتها.

لقـد كانت أخت الرّفاق ويمينهم، الرّجال الرّجال الّذين صنعوا تاريخًا ناصعًا شـريفًا منيرًا مُشَرِّفًا ومُشـرقًا لشعبٍ عاش نكبةً ومأساةً بعد أخرى، لشـعبٍ عـرفَ كيف يدفـن أمواته لينهضَ منتفِضًـا كالعنقاء مـن بين الرّماد لينير عتمـة هذا الليل. جاءوا لإحيـاء ذكرى الرّفيقة

المناضلــة أم كمــال، نظميّــة عزيز خوري عطيّــة الّتي كنّــا نعرفُها ونُعرِّفهــا بالرّفيقة نظلة. كان هذا التكريــم مُخطّطًا له في حياتها، لكــنّ الإرادة العاتية كانت هــي الأقوى والأعلى تأخذ أحســن النّاس على حين غرّة قبل موعدها كما هي دائمًا.

زارنــي مؤخّــرًا الرّفيق فــؤاد المُعلِّم (عــودة) أبو مــروان، حاملاً في جعبته صــورًا خاصّة به وبالشّــبيبة وهي من الصّــور الّتي حفظتها والدته طيّبة الذّكر أم شــفيق في مخبئها، وحافظت عليها من الحرق والإتــلاف، حيــث أنّ الحــزب كان قــد أصــدر تعليماته إبّــان العدوان الثُّلاثي على مصر للرّفاق بحرق وإتلاف كلّ الصّور المُتعلِّقة بالحزب والشّبيبة، حيث كانت هواية أبي مروان التّصوير، ولا عجب أنّ مخزن الصّور عنده، فقالت له أمّه: "أعطِني الصّور وأنا أتكفّل بحرقها".

لكِنّها بعد انتهاء العدوان، وانتصار الحقِّ على الباطل بمُساعدة موقف الإتحاد الســوفيتي المبدئي الدّاعم للقضيّة العربيّة وللحقّ العربيّ، جاءته أمّه بالصور ســالمةً كامِلةً دون أن تمسّــها ألْسِــنَة الشّــيطان النّاريّة، بسوء. تلك الوالدة أمّ شفيق التي كانت توقِظُ أبناءها الرّفاق الأربعة شــفيق ورياض وفؤاد وطيّب الذّكر كمــال ليذهبوا إلى مقرِّ الحزب لحراســته وليكونوا سَــنَدًا ورفاقهم للحزب الشّيوعي. فصدق قول الشّاعر:

"الأمّ مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيِّب الأعراق"

لقد ذكر أبو مروان في حديثه أنّ الشّباب اليميني في حيفا لم يَعْرِفوا أو يُعَرِّفوا برهوم باســمه، بل بأبي الشّوارب، حيث أنَّه ترك لشاربيه الرّاحة في النّموّ وبترتيب جميل وأنيق يُعطِي للاعتزاز بهما والحفاظ عليهما مكانًا خاصًّا. حيثُ كان قَسَــمُ الرَّجلِ بشــواربه أفضل من أيّة كفالة خطّيّة.

حدّثنــي أبو مروان عن أنّه في أحدِ أيّام حراســته ورفاقه لنادي إميل توما في درج الموارنة ســمع وشوشــة في الخارج وإذ بشخص ينظر من فتحة في شُبّاك النّادي، ليرصُدَ المكان، فحضّر أبو مروانً سلاحه ليــرُدّ المُعتدين، وكان عبارة عــن "نُقّيفة" فضرب الحجر من المُقلاع إلــى فتحة الشُّــبّاك وإذ بالرّاصد فــي الخارج يصْرُخ مــن الألم وولّى وجماعتــه هاربين وذاهبيــن أدراج الرِّياح من حيث أتــوا. وفي حفلة الحزب الّتي كنت قد ذكرتها في حلقة سابقة، حيث أقيمت في سينما "بيئير" توزّع رفاق الشّــبيبة على أربعة مداخل دار السّينما السّفلى، وإذ بمســؤول الحراســة الرّفيق إدغار كركبي يُناديهم ويُعلِمهم بأنّ هُناك اعتداءً في الخارج، وحين سمع طيّب الذّكر سميح العرّام بالخبر، مــزّق قميصــه مُعْلِنًا الهجــوم لــرَدّ المُعتدين، وكان ســميح معروفًا بِفُتُوَّتــهِ وبأنّــه حال قَلْعِــهِ القميص يكون "قــدّ" الهجوم. فصدّوهم وولّــوا هاربين ورفاقنا وراءهم وقد أشــبعوهم ركلاً ورفسًــا وضربًا إلى أن وصلوا مقرّهم في ناحية سينما "آرمون".

وأضــاف أبو مــروان عن فريق كرة القدم، أنّــه كان يُموَّل من الرّفاق ويُدعــم من عائلاتهم أيضًا، فضلاً عن دعم الحزب والشّــبيبة، وقال إنّ والده أبا شفيق طيّب اللّه ثراه كان يُحَضِّر لهم طبقًا من الهريسة أو القطايــف ليبيعوها لتمويل الفريق. ويكمل حديثه بأســفٍ عن أنَّ فشــل الفريق في الارتقــاء إلى درجات عُليا كان بتخطيط ســلطوي وتآمر من الحكم عليهم. وكانت ذروة التّآمر خلال مباراة مصيريّة مع فريق لا يذكر أبو مروان اســمه. فحيــن كان الرّفيق طيّب الذّكر ديب عابدي يركل الكرة لِتَجِدَ مكانها في شِــباكِ مرمى الفريق المُنافس، كان يُفشلها الحَكَم ويحسب للآخرين ضربة جزاء.

11

هاتفني د. شكري عرّاف، المؤرّخ المعروف ليسألني عن أسماء وردت في الحلقة الأولى من "يوميّات برهوم البُلْشُفيّ"، أسماء ساهمت في بقاء برهوم البلشفيّ وعائلته في أرض الوطن وحالت دون ضياعهم في مخيّمات الشّتات بعد ضياع الوطن في العام 1948.

الأسماء المحفورة في ذاكرة برهوم وعائلته وأولاده وأحفاده هم الشّيخ الجليليّ الجليل طيّب الذّكر حسين سلمان صلالحة (أبو مالك) والشّيخ الجليليّ الجليل عبد اللّه أبو عبسي (أبو شفيق) من قرية بيت جن بزابوده الصّامد في أعالي الجرمق الأشمّ كأهله، حيث ضربوا لبرهوم وأهله المثل في الكرامة والشّهامة وعزّة النّفس والإباء والمحبّة والتضحية والتّسامح والرّجولة والكرم. فكما جاء في الحديث الشّريف "من عامل النّاس فلم يظلمهم، وحدّثهم فلم يكذّبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو من كملتْ مروءته وظهرتْ عدالته ووجبتْ أخوّته". فقد قالوا:

"خيرُ الإخوانِ من أقبلَ عليكَ إذا أدْبَرَ الزّمانُ عنكَ".

وبقيت جملة أبي مالك محفورة في ذاكرة جميع أحفاد برهوم: ياللي بيصير عليكو بيصير علينا. مصيرنا وطريقنا مشترك، فنحن شعب واحد ولنا وطن واحد غالٍ وليس لنا سواه.

حينَ ذكر برهوم أسماء الشّيخين الجليلين، تذكّر النّساءَ اللواتي رَجِعْنَ من صفد بعد أنْ هُجِّرنَ وقت الشّتات إلى قرية بيت جن خائفات ومستنجِدات بعد أن تعرّضن للاعتداء والسّرقة، فتجمّع مشايخ البلد الشّرفاء وذهبوا مع شباب البلد إلى ذلك المكان حيث تعرَّضْنَ للاعتداء ووجدوا قُطّاع الطُّرق هُناك، وأرجعوا للنّساء ممتلكاتهنّ المسروقة وأبلوا "بلاءً حسنًا" بالسّارقين.

لم أرد ذكر الأسماء الحقيقيّة في المذكّرات لأنّه تواجد في كلّ قرية وكلّ بلدة أمثال هؤلاء الأبطال، من أهلنا من بني معروف أحفاد سلطان باشا الأطرش ومجيد أرسلان الّذين كانوا وما زالوا رغم الدّاء والأعداء من "لحمنا ودمنا وعظمنا". ففي ذلك العام المشؤوم كانوا صمّام الأمان والدِّرع الواقي لشعبنا وحالوا دون تهجير أهلِ بلدتهم من الطّوائف الأخرى. فها أنا استشهِدُ بما أوصى قائد الثّورة العربيّة السّوريّة الكُبرى سلطان باشا الأطرش "واعلموا أنّ وحدة العرب، هي المنع والقوّة، وأنّها حلم الأجيال وطريق الخلاص، واعلموا بأنّ ما أُخِذ بالسّيف، بالسّيفِ يؤخَذ. وأنّ الإيمان أقوى من كُلّ سلاح. وأنّ كأس الحنظل بالعِزِّ، أشهى من ماء الحياة مع الذّلِّ. وأنّ الإيمان يُشْحَنُ بالصّبر، ويُحْصَدُ بالعدل، ويُعزّزُ باليقين ويقوى بالجهاد".

في أيّام الحكم العسكري بعد الاحتلال، والّذي كان لحزبنا الشّيوعي الباع الأساس في إلغائه رغم مطالبة النّوّاب العرب من أحزاب صهيونيّة باستمراره، كان على العربيّ حمل بطاقة هويّة في بلدته أو تصريح إقامة إن كان في بلدة أخرى. فحين كان ينتهي برهوم من اجتماعٍ مُعيّنٍ كان بطبيعة الحال يعود إلى بيته في شارع ياقوت في

حي وادي النّسـناس وكان الرّفاق اليهود يذهبـون مع الرّفاق العرب للاطمئنـان على أنّهـم وصلوا بيوتهـم بأمان ولم يُصابـوا بمكروه من أيدي الشّـرطة حـال دخولهم الحيّ العربيّ. فمـرّةً كان بصحبته طيّـب الذّكـر الرفيق فريـد فرح (أبو جونـي)، وذهب برهـوم لبيته لكن الشّـرطي أوقف أبا جوني سـائلاً "من كان معـك" فأجابه "كنت لوحدي"، فلم يُصدّقه الشّرطي، فطلب منه أبو جوني أن يقف مكانه ليـرى كيف أنّه ومن هذه الزّاوية لا يُمكنـه الرّؤية بوضوح، فما كان من الشّـرطي "الفطين" إلا تبيان الأمر بنفسـه، وحين تبادلا المكان هـرب الرّفيق الفطين (بدون أقواس) أبو جوني من الشّـرطيّ واجِدًا ثُلْثيْ أو حتّى كلّ المراجل في هروبه، كي لا يُعْتَقل.

قام الحزب الشّيوعي في منطقة حيفا في 2007/3/31 بخطوة مُميَّزة وفريـدة من نوعها حيثُ عُقِد احتِفالٌ بيـوم الأرض الخالد في ذكراه الحاديـة والثلاثيـن، وبانعِقاد المؤتمر القُطري الخامس والعشـرين للحزب مسـتغِلاً هاتين المناسـبتين الكريمتين النِّضاليّتين لتكريم رفيقـات ورفاق قُدامى وأنصار الحـزب. فقد قام الأمين العام للحزب الشّيوعي الرّفيق عصام مخّول والرّفيق د. عصام زين الدّين سكرتير المنطقة للحزب الشّيوعي بتقديم ربطةٍ حمراءٍ لكُلِّ رفيق مُكَرَّم، مع شعار الحزب مرسوم على الرّبطة وشعار المنجل والشّاكوش ليُقْفِلُ طرفَيْ الرّبطة من الأمام. وهناك تعرّفتُ على الرّفيقة سيما روتنيك الّتي اختبأت وراء برميل كبير للنّفايات لتُتيحَ لأختها طيّبة الذّكر روتي والّتي كانت تُعاني من عاهة جسدية تمنعها من الرّكض، أن تختبئ داخل البرميل. لم تَحُدّ عاهتها الجسـديّة من عزيمتها لنصرة الحزب والشّـبيبة، فقد أخذت المناشـير وخبّأتها في صدرها قبل أنْ تخونها رِجْلُها. وكم تكتّمت وتتكتّم الصّدور على أسـرار وأشياء لا يعلمها إلا اللّه. هربتا لتخبئة الأدوات الّتي استعملوها لكتابة الشّعارات ولتخبئة

المنشور، خوفًا من مطاردات الشّـرطة للمجموعة الّتي كانت ترسم الشّـعارات وتوزِّع المنشـورات المُناوئة لزيارة فوستر دالاس للبلاد، لاحقتهم لتعتقلهم، بحُجّتهم الواهية، أنّ المنشور معادٍ للدّولة وفيه تحريـض ولم توافق الرّقابة على توزيعه ولـم تُؤخذ موافقتها. وما كان من الرّفاق إلا الهرب. وهنا أنشـر صورة الرّفيقة سـيما روتنيك يوم كانت عضوًا في الشّـبيبة، وصورة تكريمها اليوم، تغيّرت سمات الوجوه لكن الفكر لم يتغيَّر، وبقيت مُخلصة إلى يومنا هذا.

كان الحضور النّسـوي بارزًا في التّكريم. أذكـر الرّفيقات المُكَرَّمات، حسـب الترتيب الأبجـدي أديبة حدّاد، جانيت مطـر، حايا توما، زهرة خمرة، سـعدى الصُّلح، سعدى تركي، سـيما روتنيك، فييرا رورليخ، ماجـي كركبـي، ميلادة زريـق، نينا ألتمـان، وردة حبيـب ويوخيفيد غونيـن. لـكلّ رفيقة ونصيـرة تاريخ مُضيء ومُشـرِق، فهي ركيزة داعمـة وثابتـة للعائلة الصّغيـرة والكبيرة، وهي العاملـة، الفّلاحة، المُناضلة، البطلة، المُوَظَّفة، الكاتبـة، الرّفيقة، النّصيرة، المؤازرة، الطّبيبـة، المُمَرِّضة، الزّميلة، المُعَلِّمة، المُحامية، المُربية، الحاضِنة، الجدّة، الخالة، العمّة، الحماة، العين السّاهرة، الابنة، الأُخت، الزّوجة، والأم فهـي كلّ شـيءٍ لأنّ الأمّ مدرسـة ونـور الحيـاة فالجنّـة تحت أقدامهـا، هي حياتنـا وحيويّتنا، وحبّنـا وأَحَبُّ الناسَ لـي أمّي، حقّنا وحريّتنـا، هي الماء والهواء والسّـماء والدّواء. هي العِرض والشّـرف ونـور العيون وهـي النّصف الأوّل للمُجتمع أو أكثـر بكثير من نصف المُجتمـع فلولاها لـم نكُن ولم نبقَ ولم ندُم هـي الأمّ هي الرّفيقة هـي النّصيرة هي الحزب والجبهة والأمل وهذه هي أسـماء الرّفيقة الحُسْنى.

كان احتفالاً مهيبًا يوم السّـبت 2007/3/31 حيث قامت منطقة حيفا للحـزب الشـيوعي بتكريـم الرّفاق القُدامـى ورُفِّعَـت مجموعة من

رفاق جُدد من شباب جيلاً وشباب عطاءً وصدحت في القاعة شعارات مـن أمريكا اللاتينيّة حين انتسـب رفيقان للحزب من تشـيلي عانيا الأمرّين وقت الانقلاب العسـكري الفاشـي بقيادة الجنرال بينوشـت على اليسـاريين كُنّا قد ردّدناها أيّام كُنّا في الشّبيبة "البوبلو أونيدو خماسي لابن سـيدو" ويذكر برهوم شعارًا آخر كانوا يردّدون باللغة الإيطالية زيادةً على نشـيد "أفانتي بوبولو" عاش سـتالين ويسقط الملك. وهنا أَعْترِضُ على تسميتهم الجنود المجهولين مُوافِقًا رفيقًا قياديًّـا فـي حزبَنـا كان قد أعطى هـذه الملاحظة ووجدْتُ تفسـيرَه صحيحًـا. الجندي يطيـع القرارات طاعة عميـاء، دون نقاش، وإنْ لم يُنفّذ يُقتل، بينما توجد في حزبنا مؤسّسات يجري فيها نقاشٌ مفتوحٌ وحرٌّ للجميـع ويجري لاحِقًا التّصويت على الاقتراحات لتُصبح قرارات مُلْزِمة للعضو بإتّباعها إذا نالت ثقةَ غالبيّة الأعضاء في المؤسّسة.

وكم من مرّة حدثَ أنِ تقبَل الأغلبيّة اقتراح العضو العادي في الخلية في اجتماع الكادر أو أُلغِيَ اقتراحٌ من لجنة عُلْيا.

12

سقطت حيفا.

سقط سواد العيون.

سقط قلب فلسطين الخافق.

سقطت عروس السّاحل الشّاميّ للبحر الأبيض.

سـقطت في نيسـان، قبل أن تُحييها شتوية نيسـان. كانت المؤامرة كبيـرة. كان الثّمـن باهِظًا. وما كان للسّـكان إلا الهروب من مجهول ليختبئوا في ثنايا مجهول آخر، سـائلين أنفسهم: تُرى ماذا يُخَبّئ لنا هذا الغول؟ ماذا يُخبّئ لهم هذا الغول في زمن غابت فيه العنقاء ولم يعد ذكْرٌ للخلّ الوفيّ؟ وأصبح الاعتماد على الذّات مفرّ المناضلين في نضال غير منظّم نسـبيًّا مقابل تنظيم على مسـتوى أوروبي كامل ودعم أوروبي وعالمي وعربي، والّذي كان سـبب الفشل والسّقوط، وكأنّ هـذا الثّوب كان مُفَصّلاً مُسْـبقًا على قـدّ العروس وكان عليها لبسـه مرغمـةً، أو كان عليهـا الشّـرب من هـذه الـكأس الممزوجة

بالحنظل مُسبقًا لتشربه مُكرهةً، لتُسقِطَ عن وجوههم كلّ الأقنعة إلى أن سقط القناع الأخير عن القناع الأخير.

سيذكركِ أهلك يا حيفا، سيذكرُ أهلك السّاكنين فيكِ أهلَهُم في الشّتات كما ستذْكُرُ أحياء وبيوت وبساتين الياسمين في حيفا أهلَها الّذين طُردوا وسيذكُرُك المنفِيّون أو اللاجئون مهما طال البُعاد، سيذكركِ كُلّما قبّلت ولاطفَت أمواجُ بحركِ ساحلكِ أو أشرقت شمسُكِ أو كلّما طلع البدرُ، بدرُكِ، علينا. سيذكركِ أهلُكِ إلى أن ينام القمر. ولا أحد يشفع للعروس غير عريسها.

فقد اشترى داود، أخ برهوم الأكبر، الّذي حمل همّ العائلة جمعاء على كتفَيْهِ إلى جانب هموم شعبه ووطنه، مسدَّسًا ألمانيًا من نوع بارَابِلّو، بأربعين ليرة فلسطينيّة، أي ما يُقارب معاشه الشّهريّ ويزيد. حيث كان يحرس حارته وهي المنطقة الواقعة بين شارع ياقوت ومار يوحنّا. يومها كان متمركِزًا وراء متراسٍ، ووجهه نحو عمارة شركة الكهرباء، الواقعة في نهاية شارع مار يوحنّا، بتقاطُعِهِ مع طريق أللنبي، وحين كان موجِّهًا انتباهه إلى ذلك التّقاطع، أتاه صديقان متطوّعان لُبنانيّان من مدينة بعلبك، وعلى رأسيهما كوفيّتان بيْضاوان وعقالان أسودان وهما نايف كحيل، شابّ أشقر الشّعر أزرق العينيْن ذو قامة عالية ومليئة وابن عمّه محمّد كحيل مثيله في الهيئة، ليُبَدِّلاه، قائلين له: زيح هيك يا داود وروح ارتاح.

لكنّه حال إخلاء موقعه لهما، وإذْ برصاص الجيش البريطاني يأتيهما من الخلفِ من بارودة جُنديٍّ بريطانيٍّ كان قد ترجّل من مُصَفّحتِهِ، قتلهُما غَدْرًا، فَيُصيب رصاصه المُتطوِّعَيْن اللبنانِيَّيْن من أبناء كحيل ليُسقِطهما شهيدين من أجل حيفا، ويُحدّد برهوم مكان استشهادهما، حيث كان في شارع مار يوحنّا رقم 15. ويُقال إنّ هناك من وشى للإنجليز بوجودهما في تلك النّقطة.

لقد كان لكلّ مدافع مسدّس مختلف عن المدافع الآخر وكذلك ذخيرته، حتى أنّــه إذا انقطعت عنه الذّخيرة لا يجدها عند رفيقه، وفي حالات أخــرى كانت الفتية تنظّــف الرّصاص "بورق الزّجاج" لتُصبح ســهلة التّعبئة في مخزن البواريد الفرنســيّة القديمة التي كانوا قد حصلوا عليها من اللجنة القوميّة...

ويذكر برهوم كيف أنّ "الهجاناه" كانت تُطْلِقُ عنان البراميل تتدحرج من علٍ لتصل الوادي أو الأماكن الواطئة، فمرّةً دحرجوا برميلين من البــارود من درج الطّنطورة إلى وادي النّســناس وقد أحدث تفجّرهما إصابــات بالغة لعدد من المارّة والمباني، وطبعًا كان هدفهم من هذا القتل والتدمير، التّرهيب والتّخويف لدفعهم إلى النّزوح.

كان لهيــب النّار والحرب يتأجّج كُلّمــا تقرّرت الهُدنة لوقف إطلاقه، أو إن دامــت أكثر من يوم، فلــم يرتح الإنكليز ولــم تَغْمض لهم مُقلة بسياســتهم "فرّق تســد" لأيّة مُصالحة. فيتذكّر برهــوم أنّ الإنكليز أتــوا برجل ديــن يهوديّ إلى حيّ وادي النّســناس، حيث تركوه هُناك لِيُعتــدى عليه وكانت فِطنة أهل الحيّ كبيرة حيث نقلوه إلى منطقة الهــدار مــن حيثُ أحضــروه. وحــدث العكس أيضًــا، إذ أخــذوا عربيًّا وتركــوه في المنطقــة اليهوديّة لكنّ اليهود أرجعوه إلى حيِّه ســالِمًا متفادين بذلك عرقلة دوام الهُدنة. حالة مُشابهة يذكُرها طيّب الذّكر أبو طوني حنّــا نقّارة، في مذكّراته الّتي جمعها أبناؤه في كتاب "حنّا نقّارة محامي الأرض والشّــعب" أنّــه إن دام وقف إطلاق النّار بضعة أيّام انزعج الانكليز. إذ راح القنّاصة يحتلون مراكز عالية في المدينة في الأماكن المُتاخمة لمناطق السّكن العربيّة كعمارة سلام (الحولة) وعمارة الخيّاط وســطح عمارة البريد في شــارع البرج وسطح عمارة ســلَمون لتوجيه الرّصــاص باتّجاه اليهود تــارةً وباتّجــاه العرب تارةً أُخرى، لينذلع أو ليتجدّد إطلاق النّار وتتجدّد الحرب.

قبـل تهجير العائلـة وترحيلها أسـوة بباقي عائلات حيفا وسـكانها، قرّر داود (أبو عايدة) البقاء ورفاقه للدّفاع عن حيفا، على أن يرسـل والدته وإخوته الصّغار، خارج المدينة، ربّما ليجدوا قسطًا من الرّاحة والأمـان. لكنّ والدته أصرّت على البقاء مع فلذة كبدها مُفَضِّلةً إلقاء نفسـها فـي البحر على تركـه لوحده، فـي حيفا. فوجـدوا ملجأهم كباقي سكّان البلد في كنائس وأديرة ومساجد حيفا. ويروي برهوم أنّه يوم سـقوط حيفـا كان أخوه داود يعملُ في قسـم الجمارك في الميناء حتّى الثّامنة صباحًا، على أن يبدأ عمله في المكتب الرئيسي، حيـث كان يعمل بوظيفة كاملـة ودائمة في بنايـة الجمرك الواقعة في "سـاحة بالمار" باب رقم خمسـة. لقد كانت حيفـا مركز جمارك فلسـطين، ومنفذها الوحيد للبحـر، ميناء حيفا وهو ثاني أهم ميناء في شـرق البحر الأبيض بعد الإسكندرية، ومركزها البرّيّ من خلال سـكّة الحديـد الحجازيّـة، وفيها مركز لشـركات كُبرى مثـل "آي بي سـي"، وشركة "شيل" وشـركة "سـتيل" ومصفاة البترول وشركات البواخر، وهذه المراكز فتحت وأفسـحت المجال لسـكان حيفا العرب واليهود للعمل سـويّة إذ ارتبطت أواصر الصّداقة والمودّة بين جميع السّـكان في حيفا، من عرب ويهود. لقـد كانت حيفا وما زالت مدينة ذات خصوصيّات مميَّزة بتعايُشِـها فلم يسُـدها التطرّف ولا التّوتّرات إلـى أن وضعـت الحركـة الصّهيونيّة والإنكليـز كامـل ثِقلهم فيها لإحداث وتنفيـذ مآربهم. فقد كان سُـكّانها يتعاونون ويتعاملون مع بعضهم البعض يوميًّا في أماكن عمل واحدة وتحت سقف واحد، في المصانع والموانئ والمكاتب والمدارس والمتاجر والدّوائر الرّسـميّة، الحكوميّـة والبلديّـة والقضائيّة. فكم من مرّة نظّـم اليهود والعرب بآلافهم إضرابًا ضدّ حكومة البلاد الانتدابيّة، إن كان إضراب موظّفي الحكومة أو العمّال في شركة آي بي سي.

لقد رأى أبو عايدة الحقيقة واضِحة كقرص الشّمس في قُبّة السّماء. وحيــن طُلِب منــه التّوقيــع والموافقة على التّقسـيم رفض. رفض الموافقة على نقض مواقفِهِ. ليجد نفسه لاجِقًا مطرودًا أو مفصولاً من العمل.

رأى أبو عايدة تهجير سـكّان حيفا العــرب عن طريق الميناء بآلافهم ورأى كيــف يُســهّل لهم رجال الأمــن البريطاني المــرور عبر نقطة الحدود البحرية، فاتحين أبواب الميناء للنّازحين العرب من جهة محطّة الكرمل وشــرق حيفــا وجنوب المدينــة ليلتجِئوا إلى ســاحات الميناء وانتظار البواخر البريطانيّــة الّتي انتظمت بإيعاز من الإنكليز وتحت حراســتهم ورقابتهم لنقْلِهِــم بحرًا إلى مدينة عكّا، أو برًّا بســيّارات انكليزيــة أو صهيونيّــة إلى الحــدود اللبنانيّة وبــدون مُقابل، المهم النّزوح عن حيفــا وتطهيرها من العِرْق العربي، والتّأكد من أنّهم قد انتقلــوا إلى هناك حســب المُخطّــط. لقد تجنّد الانجليــز والعصابات الصّهيونيّة لنقلهم باتّجــاهٍ واحدٍ فقط، فيذكر طيّب الذّكر حنا نقارة (أبو طوني) أنّه حين أراد العودة بحرًا إلى حيفا وجد رفضًا قاطِعًا من رُبّان البواخر العســكريّة الإنكليزيّة ومنعه وعائلته بصفاقةٍ شديدة من العودة، لكنّه عرف كيف يعود ليكون الخادم القضائي لشعبه في وطنه.

لقد بقيَ في حيفا يوم ســقوطها حوالي ألف وخمســمائة عربيٍّ من مجموع ثمانين ألف عربيٍّ كانوا يســكنونها وهناك مصدر آخر يذكر بقاء زهاء ثلاثة آلاف عربيّ من مجموع سبعين ألف عربيّ.

أرادوا حيفــا نظيفــةً من العرب. صحيــح أنّه تعالت أصــوات يهوديّة رسميّة وغير رسميّة تطالب العرب بالبقاء كآبا حوشي وشبتاي ليفي ولكن الواقع كان عكس ذلــك، فأخبار المجازر والقتل والفتك بأهلنا من قبل العصابات في قرى قضاء حيفا كالطّنطورة وإجزم وكفر لام

وعيــن حوض وعين غزال وأمّ الزّينات أرهبت أهل حيفا، ولا ننســى دعم ومسؤوليّة لجنة الطّوارئ العربيّة الّتي طلبت (وكأنّه كان هناك ســبب لهكذا طلب) تســهيل النّزوح، ليصبح أهل حيفا لُقمةً ســائغةً لمؤامرات الإنجليز والصّهيونيّين. كان المُخطّط تشــريد سكّان جميع قُرى السّــاحل الفلســطيني من رأس الناقورة شمالاً إلى غزة هاشم جنوبًا.

لذلك لم يؤيّد المناضل أبو عايدة، داود تركي دخول قوّات فوزي بك القاوقجي المدينة على اعتبار أنّها كانت مســرحيّة مدروســة لنهاية معروفة ومُبرمجة.

رأى داود المؤامرة بوجهها الصّحيح، تآمر صهيوني بريطاني ورجعي عربــي محلّي ومن أقطــار عربيّة أخرى على فلســطين، وعلى أهل فلســطين العرب ، الّذين وجــدوا "باللجوء المؤقّت لســبعة أيّام" كما طُلِــبَ منهــم حلاً مؤقّتًا ليمتــدّ إلى يومِنا هذا، فقد وجد داود نفســه مؤيّدًا ومُسانِدًا وعضوًا في عُصبة التّحرّر الوطني، لاحِقًا.

ســقطت حيفا بتاريخ 1948/4/22 أي قبل انتهاء الانتداب البريطاني بثلاثة أســابيع، فقد كان من المفروض أن ينتهي هذا الأخير بتاريخ 1948/5/15. أعطى هذا الضّوء الأخضر للقوّات الصّهيونيّة لتطبيق الخطّة الّتي وضعتها للاســتيلاء علــى حيفا بكاملها وفق خطّة أُطلق عليها اســم "المقَصّ = مســبارايم" لتمزيق حيفا العربيّة إلى ثلاثة أقســام. وقــد تواجدت فــي حيفا خلال أيــام احتلالها فرقــة كرميلي بقيادة موشــي كرميلي الّذي خشِيَ أن يبقى في حيفا عدد كبير من العــرب فأمر بقصف مراكز تجمّع سُــكْناهم، في الأحياء التحتا لحيفا بالمورتــار، لإثارة الرّعب في قلوب السّــكان العرب لدفعهم إلى ترك البلــد. زِد على ذلك المجــازر الّتي اقترفوها في وادي روشــميا وبلد الشّــيخ والحوّاســة (الّتي كانت بلــد العمّال والفلاحيــن الفقراء حيث

كانت بيوتهم من التنك).

قـام الرّفـاق توفيق طوبـي وطيّبا الذّكر الشّـاعر عصام العبّاسـي ويوسـف عبده بكتابة منشـور باسـم "عصبة التّحـرّر الوطني" في نادي "إميل توما" اليـوم والّذي كان مقرًّا للعُصبة في درج الموارنة، يدعـون فيه السّـكّان إلى عدم الرّحيل وترك البلـد، حيث وزّعوه في كلّ مناطـق حيفـا العربيّة حتّـى الميناء، وقام بعـض الرّفاق بنقل المنشـور تحت النّار إلى عكّا والنّاصـرة، لتوزيعِهِ. ويروي الرّفيق أبو الياس توفيق طوبي في كتاب "جذور من الشّجرة دائمة الخضرة" أنّه طُلِـبَ من العرب الانتقال من أماكن سـكناهم والتّوجه للتّمركز في وادي النّسناس وفي حيّ عبّاس، "وينقل توم سيغيف هذا الحدث عن بروتوكول الجلسـة المحفوظ في أرشيف الجيش الإسرائيلي ويُشير إلـى ردّ توفيق طوبي الرّافِض لعملية التّجميع واصِفًا هذا السّـلوك بأنّه بمثابة غيتو للعـرب وبأنّها خطوة عنصريّة مرفوضة" ومع ذلك فقد جرت العمليّة بأوامر وإشراف الجيش. وجملة أخرى قالها الرفيق أبـو الياس لرفاقه وأهله "سـأبقى هنا لرعاية الجمـرة والعمل على عودتكم مع أهلنا إلى حيفا".

بعد سـقوط حيفا نزحت العائلة إلى الجليـل لتعود بعدها إلى حيفا، كما جاء في الحلقات السّابقة. ومن هنا بدأت حيفا مرّةً ثانية.

يتذكّر برهوم عمل الشّـيوعيين العرب واليهود في حيفا لمنع النّزوح أو لإعـادة مـن نزح أو تحرير بيوت النّازحين بعـد عودتهم إلى حيفا، ففـي حادثـة يذكُرُها أنّ الرّفـاق اليهود تلقّوا خبرًا مـن طيّبة الذّكر بنينة فاينهاوز مفاده أنّه هناك زمرة من الجيش تحتلّ بيتًا في شارع عبّـاس، فصعدت إلى تلـك المنطقة ثلّة من الرّفـاق كان من بينهم الرّفيـق بنيامين غونيـن، وبعد نقـاش وتداول وحتّى صـدام، قيل للرّفـاق ما لكم وللعرب، فـكان الجواب: جئنـا لنُرجِعهم إلى بيوتهم

ونُرجِع لهم بيوتهـم. فاتّصلْتُ بالرّفيق بنيامين الّذي روى لي حادثة مماثلة، بعد أن صـدَّق على حادثة عبّاس. فقد ورد نبأ تجميع بعض من سُـكّان حيفا العرب في منطقة جبل الكرمل، قبل الجامعة اليوم (دينيـا) لرميهِم بالرّصاص، لكنّ قدوم الرّفـاق ومن بينهم بنيامين غونين السّـريع لتلك المنطقة ساعة وصولِهم الخبر حال دون وقوع المجزرة.

أذكرُ أنّه في إحدى زياراتنا الانتخابيّة في شرق حيفا، استقبلتنا عائلة بحفـاوة بالغة عرفنا سـببها لاحِقًا حين حضر جـدّ العائلة أبو محمّد، معلِنًـا تأييده للحزب الشّـيوعي والجبهة بقولـه: بفضلهم بقينا في حيفا وبفضلهم رجعنا إلى بيتنا ورجع لنا بيتنا ورجِعت لنا أملاكنا.

وأمّ حنّا من حيّ وادي النّسـناس تروي قصّة أخرى مشـابهة وتحيي فيها دور الشّيوعيين في إرجاع غُرفةٍ من بيتها إليها كانوا قد أخذوها من عائلتها. وللحديث تتمة والسـؤال يبقى من سـيكتب هذا التّاريخ قبل ضياعِـهِ. والأمل يبقى بما قاله الرّفيق توفيق طوبي "سـأبقى هنا لرعاية الجمرة والعمل على عودتكم مع أهلنا إلى حيفا". والأمل باقٍ بمطلع قصيدة أبو عايدة:

سَنَعُودُ يا حَيْفَا وَتَحْتَفِلُ بِجُمُوعِنَا الوِدْيَانُ وَالجَبَلُ.

وعلى أرضنا السّـلام والوئام. ولنا عودة. فنشـيد العودة يبعث الأمل فينا:

لا لن يطول بُعدي وسوف تُبصرُ عودي

نعم سأعود وتُفنى القيود وسوف أراك حماي

ديار الحمى ستمحي الدّماء
ويُطوى عن الأرض العذاب
فيزهو السّلام ويحيى الوئام
وأرجعُ بعد اغتراب

استعنت بالمصادر

1. "حنّا نقّارة محامي الأرض والشّعب" من إصدار منشورات الاسوار عكّا
2. "ثائر من الشّرق العربيّ" مُذكّرات للمُناضل والشّاعر داود تركي، حيفا
3. "جذور من الشّجرة دائمة الخضرة" د. أحمد سعد، إصدار "معهد إميل توما للأبحاث الاجتماعيّة والسّياسيّة"-حيفا.

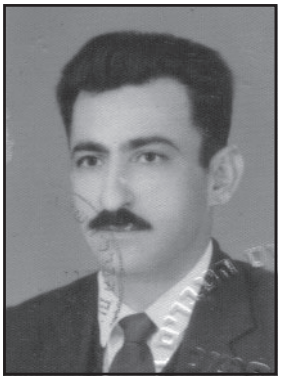

الرفيق اسطفان خوري (أبو يوسف)،
أبن الدّامون

عدد من الرفاق الّذين وقفوا وردّوا كلّ اعتداء على الحزب ومقرّاته ومطبعة صحيفته في حيفا، ببطولة وإباء وتفانٍ قلّ مثيلها في أيّامنا هذه. الرفاق أثناء المؤتمر السّابع للشّبيبة الّذي أقيم في سينما إيلات في يافة القدس كلٌّ يحملُ حقيبته "المَدرسيّة". وقوفًا من اليمين إلى اليسار: إبراهيم تُركي، تانيا، رفيقة لم تُسعف ذاكرة أحد ذكر اسمها، بُطرس تُركي، أبراهام بيجا (يوناني)، فؤاد المعلّم (عودة)، إبراهيم عاقلة، طيّب الذّكر طوني نقّارة، طيّب الذّكر جابي لوسيّا.
الرفاق من اليمين إلى اليسار جلوسًا: عبّاس زين الدّين، إدغار كركبي، الفنّان عبد عابدي ومحمّد الحاج عبد الهادي.

من احتفالات الأول من أيار، من خمسينيّات القرن الماضي، قبل انطلاق الرّفاق للتّظاهر من بستان الشّيوعية في حيّ وادي النّسناس لتجوب شوارع حيفا، من اليمين إلى اليسار الرّفاق: روتي شرمان، أنور (رفيق شفاعمريّ)، بُطرس تُركي، عبّاس زين الدّين، بولس حناني، فؤاد المُعلّم (عودة)، طيّب الذّكر جابي لوسيّا، فيكتور رزق (من النّاصرة)، حسين علي (أبو فهيم من دبّورية) وناتان.

من اليمين إلى اليسار: بولس حناني، رفيق ، سمير فرح (أبو جعفر)، فؤاد المُعلّم (عودة)، رفيقان، عبّاس زين الدّين، طيّب الذّكر جابي لوسيّا، فيكتور رزق، رفاق ، بُطرس تُركي، رفيق شفاعمريّ واسمه أنور وطيّب الذّكر، مُقْرفِصًا، طوني نقّارة.

من مظاهرات حزبنا الشيوعي في مدينة حيفا ضدّ فرض الضّرائب الّتي تُثقل كاهل العُمّال، حيث يظهر في الصّورة الرّفيقان طيّب الذّكر الياس جمّال (أبو أنور) وميشيل كركبي يرفعان شعارًا مُبيِّنًا فيه رئيس الحكومة الإسرائيليّة في حينه بن غوريون يعتلي سُلّمًا ويضع على ظهر عامل محنيّ الظّهر المُثقل بالضّرائب فوق الضّرائب.

الرفيق أديب شُرُش

الرّفيق ميشيل عون (أبو زوزو)

صورة أبي وائل حاملاً علم الحزب الشّيوعيّ في مقدِّمة مظاهرة الأول من أيّار بتاريخ *1988/4/30* والّتي جابت شوارع مدينة حيفا بدءًا بوادي النِّسْناس، وإلى جانبه رفاق الشّبيبة الشّيوعية بأعلامها الحمراء والرّفاق بطرس سمعان، أبو خليل، وطيِّبات الذّكر نظلة عطية، أم كمال، والرّفيقة إيتيل كلنغر.

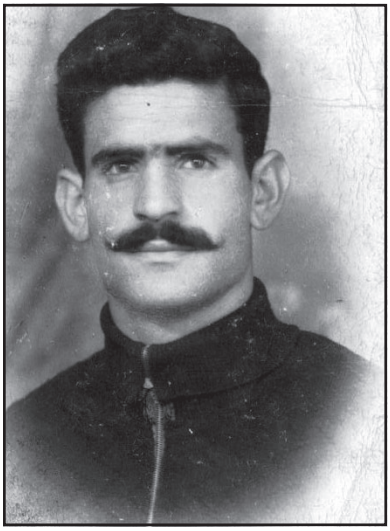

الرّفيق إبراهيم تُركي

يظهر في الصّورة وقوفًا من اليمين إلى اليسار الرّفاق إدغار كركبي، شفيق المُعلِّم (عودة)، إبراهيم عاقلة، وجلوسًا من اليمين إلى اليسار الرّفاق الفرد شحادة، طيِّبا الذّكر غسّان حبيب وطوني نقّارة، أمّا الطّفل الّذي بينهم فهو شبل من أبناء الكادحين والرّفيق والطّبيب لاحِقًا، سُهيل أسعد، أبو خالد.

صورة الشّيخ أبو مالك
حسين سلمان صلاحة
في ريعان الشّباب

صّورة في أحضان الطّبيعة في الجليل، عام *1950*، من اليمين إلى اليسار: سيما روتنيك، يهوديت، سارة فيزل، أهارون، يتسحاق، وجلوسًا تمار إيلكا.

الرفيقان عصام مخّول ود عصام زين الدّين يُكرمان الرفيقة سيما روتنيك.

الرفيق عصام مخّول يُكرّم أم ماهر زهرة خمرة.

الرفيق عصام مخّول يُكرّم أم رمزي ميلادة زريق.

الرفيق عصام مخّول ود. بسّام حداد يُكرّمان الرفيقة نينا ألتمان

صورة الرفيقة المكرمة يوخيفيد غونين

صورة للرّفاق من اليمين إلى اليسار وقوفًا: إبراهيم عاقلة، إبراهيم تركي، طوني نقّارة وبطرس تركي، والرّفاق الثّلاثة المُقرفصين من اليمين إلى اليسار: بنيامين غونين، فؤاد المعلّم (عودة) وعبّاس زين الدّين.

الرفيق الشّاعر داود تركي

13

أيُّها الرّبُّ إِلَهُنا بالمجد والكرامة كلّلهما.

كما كلّلتَ إبراهيم وسارة وكما كلّلتَ زكريا واليصابات.

بهذه الأمنية يُكلّل الكاهن عقد قِران العروسَـيْن. يتمنّى للعروسين أن يتكلّـل عقـد قرانهما بالمجـد والكرامـة. أمنية جميلـة يكتنفُها الشّـموخ والمروءة والإباء والعِزّة. وبهذه الأمنية انتهى إكليل برهوم من زوجته سـعدى قبل خمسـين عامًا ويزيد. فَلِبَرْهُـوم حكايته مع هذه الأمنية. لأنّه "وما نيل المطالب بالتّمنّي".

حيـن أراد برهوم الزّواج مـن ابنة عمه، كان عليـه أن يمرّ بترتيبات كنسـيّة تسمح له بعقد القران عليها، في زمن كان الشّاب يُنْزِل ابنة عمّه العروس عن ظهر الفرس حتّى لو كانت في طريقها إلى زوجها، إلى بيتها الجديد، لتكون حلال ابن عمها لا الغريب.

كانت التّرتيبات الكنسيّة تقضي باعتراف العريس والعروس للكاهن بجميـع الخطايا حتّى يسـمح لهما بالقران وبذلـك يكونان قد اعترفا

بسـلطة الكنيسة، وما يجمعه اللّه لا يُفَرِّقه إنسان. فقد أتى برهوم مُسْـتَهِمًّا للكنيسـة ليعترف لرسـولها عن كلّ سـوء عمله ليغفر له خطاياه، بإذن اللّه تعالى، حيث أنّ الإنسـان غير معصوم عن الخطأ، وليُعطيـه "الحلّة" أي سَـمَاح الكنيسـة للعروسـيْن بالـزّواج، وحينها يكون عقد القِران رسـميًّا تعترف به سُلطة الدّولة. ركع برهوم على كُرْسيّ الاعتراف، وهذا الكرسيّ هو عبارة عن مجسّم خشبيّ صغير يكـون في مدخل الكنيسـة أو بطرفِها، أو في المكانيْـن معًا. يدخل الكاهن المجسّم، ويُقفلُ الباب وراءه ويُغطّي قمرته بستارةٍ، ويدخُل المُعْترِف من باب آخر، مفتوح من جهة الكنيسـة وتفصل بينه وبين الكاهن لوحة من الخشـب وفيها شُـبّاك من الشِّباك تحول دون رؤية الواحد منهما الآخر بشكلٍ واضحٍ وتسمح للإثنين السّماع بوضوح.

وبعد استماع الكاهن لاعتراف العبد المؤمِن بسُلطة الكنيسة وباللّه الأحد يُعطيـه جزاءه وغُفرانه. الجزاء هو عبـارة عن إعلان المُعترِف التّوبـة وبضع صلوات لعددٍ من المرّات حسـب كِبَـر الخطايا وبعدها تُغفَرُ خطاياه. فكما نعلم أنَّ هناك خطايا عرضيّة ومُميتة.

حيـن انتهى برهوم مـن الاعتراف للكاهـن، الّـذي كان يعرفه جيّدًا مـن خلال موقعـه الدّينيّ الّذي يشـغله حيث أنّه كاهـن الرّعيّة في حيفـا، وهَمَّ بالقيام وإذ بالكاهن يُناديه: يا ابني إنّك لم تعترف بكُلّ الخطايا. فأكّدَ له برهـوم أنه قال الحقيقة وفقط الحقيقة. فقال له الكاهن: هذا غير صحيح فإنّك لم تعترف بشيوعيّتك، وبأنّ الكنيسة هي صاحبة السّـلطة وليس غيرها. وأيضًا، قال الكاهن لبرهوم: ما أطلبـه منك هو أن تكتب لي بيانًا موقّعًا على هذه الورقة، تسـتنكر فيـه عضويّتك فـي الحزب الشّـيوعي لأنه معادٍ للكنيسـة. فقال له برهـوم أتيتـك معترفًا بسـلطتك، أولاً، وثانيًا "هـل نحن في مركز تحقيق"! قائلاً في نفسه: حتّى أنت يا "أبونا" وقائلاً له على مسمَعِهِ:

وهل الشّـيوعيّة إثم عليّ الاعتراف بِه، وأنّ مُجرّد قدومي للكنيسـة طالِبًا سماحكم بالزّواج هو الدّليل القاطع على اعترافي بسُلطتِكم.

وإذا أردْتَ أن تُكلّلنـا بالمجـد والكرامـة، فهذه الشّـيوعيّة هي المجد والمجد مجدنا وهي الكرامة والكرامة كرامتنا وهي العزّ والعزّ عزّنا.

وبعد نقاش عسـير أعلن برهوم للكاهن عن رغبته عقد القران عند سُـلطة أخرى إن رفض إعطاء "الحلّة"، إسـوةً بعدة أزواج من الرّفاق الّذيـن عقدوا قرانهم في أبرشـيّات أخرى أو وجـدوا بالزّواج المدني خـارج البلاد حـلاً مقبولاً وقاطِعًا. وحال سـماعِهِ قرار برهوم سـمح الكاهن لبرهوم بالزّواج على أن يتحدّث أوّلاً مع خطيبته لتعترف هي الأخرى عنده، مع أنّها قد انتهت من هذا الواجب الدّيني الشّرعي.

فبـدأ حديثه طالِبًا من العـروس أن تُبطل هذا القِـران من "المُتّهم" بالشّيوعيّة أو أن تنهيه عن ذلك الفكر والمسلك، ولكن قول الفصل لخطيبته سـعدى قطع قول كلّ من شـاء أن يمنـع قرانهما: هذا ابن عمّي ولـو راح عالموت بروح معه، وكأس الحنظل من إيدو حلو وهو يُنزِلُني عن فَرَسِي.

وأخيرًا عرف راعي الأبرشية أنّ عليه أن يُخيط بغير هذه المِسَلّة وبانّ هذا الانتسـاب لا يُشَـكِّل خطيئة ولا يُجازَى عليه برهوم لا في الدّنيا ولا فـي الآخرة. وتمّ الزواج في كنيسـة مار الياس للـرّوم الملكيّين الكاثوليك في شـارع عيـن دور في مدينة حيفا، مـن بعد ظهر يوم السّـبت الموافق الخامس عشر من شهر كانون أوّل من العام 1956. فقد كلّلهما الأبوان كيريلّوس خشَـيْبون ومتري. كان الأب كيريلّوس مُعلّم برهوم في الكليّة الأسقفية، في حيفا، الواقعة بين شارع مار يوحنّا القدّيس، نزلة الكلـداوي، وبين طريق أللنبي، حيث انتقل مع أترابه إليها عندما كان في الصّفّ الثّاني بعد أن كانت مدرستهم في

كنيسة السّيدة (بيت النّعمة اليوم) في حارة الكنائس. وعندما روى برهوم قصّة زواجه تذكّر ما حدث له خلال أيّامه الدّراسيّة الابتدائية، في الكليّة الأسقفية، عندما كان يَطْلبُ مُعلّمُ اللغة العربيّة من التّلاميذ وضع رؤوسهم على الطّاولات للقَيْلولةِ، بدعوتِهِ لهم: طُبّوا رؤوسكم على الطاولات، للرّاحة. وعندها يقتربُ الأستاذُ من النّافِذة المُطِلّة على الشّارعَ ليَنْظُرَ بعيدًا إلى العمارة المجاورة، إلى شُبّاك الجارة، ويبدأ حديثهما بالإيماء. "ما حْلَى الْوَمَى بالْوَمَى". كانت هذه القيْلولة القسْريّة شبه يوميّة، حسب أوقات فراغ الجارة، إلى أن كشف برهوم العاشقَيْن في حالة عشقٍ عُذريٍّ يعجز وصفه، فبدأ الضّحك واللكز والوشوشة والحركة غير الطّبيعيّة بين طلاّب الصّفّ، فانتبه المعلّم وجارته للأمر. وبعد هذا الإحراج لم تعد ساعات قيلولة للتّلاميذ أثناء الدّوام.

حين التقينا طيّب الذّكر الرّفيق علي عاشور، أبو إبراهيم، في إحدى محاضراته النّظرية والتّثقيفيّة، لأعضاء الشّبيبة الشّيوعيّة في حيفا، أجاب على سؤال أحد الرّفاق حول تكفير الشّيوعيّين من بعض النّاس ولماذا يعتبرون الرّفاقَ كفرةً قال: من كَفَّرَكُم فهو كافر.

والشّيوعيّون يا رفاق هم أوّل الدّاخلين إلى الجنّة، ويرحمهم الباري بأعمالهم الحسنة وصراطهم المستقيم وتفانيهم وتضحيتهم وإخلاصهم في عملهم من أجل رفاه وحريّة وسعادة شعوبهم.

يُحدّثني برهوم أنّه حين احتلّ الجيش الإسرائيلي غزّة هاشم عام النّكبة، كان يقبع أبو إبراهيم ورفاقه في سجن أبو عجيلة الصّحراوي، في سيناء، ومن هُناك نُقلوا إلى المُعتقلات الإسرائيلية ليبقى فيها سبعة أشهر حتى إطلاق سراحِهِ بقرار من المحكمة العُليا بعد تدخل رفاق حزبنا وقد صدَّقت المحكمة بعدها على منحِهِ الجنسيّة. وفي أوائل الخمسينيّات سكن حيفا وكان مدير جمعية "قوت الكادحين"

التّعاونيّة، ومن بعدها تبوّأ مراكز في قمّة هرم القيادة والاحتراف الحزبيّين.

لقد كان على الرّفاق من خارج حيفا تجديد تّصاريح الإقامة في المدينة شهريًّا وذات مرّة رفض مكتب الدّاخليّة التّجديد للرفاق وإذ بالرّفيق إدغار كركبي يحصل على التّصريح ولمدّة شهر فجاء مسرعًا ليُعلِن لكلّ من يهمّه الأمر من الرّفاق ممّن ينتظر تصريحه أن يَرْمَحَ إلى مكتب الدّاخليّة لإصدار التّصريح طويل الأمد. وكان لهم ما أرادوا. وكان من بين هؤلاء الرّفاق محمّد خاصّ، علي عاشور، محمّد أبو الرُّبّ والشّاعر محمود درويش وغيرهم. وكان سبب هذا الفرج وجود موظّف "غَشِيم" وجديد، يُقال أنّه روسيّ لم يحفظ الدّرس كما لُقِّنَ فأعطى التّصاريح ولمُدّة شهر عن "جنب وطَرَف"، عِلْمًا بأنّ التّصاريح كانت تُجدّد بشكل أسبوعيّ، وبعدها، حين علم مدير المكتب بالأمر دعا الرّفاق إليه، لكنهم رفضوا الحضور وركب مدير مكتب الدّاخليّة أعلى خَيْلَهُ.

فالحملة التّحريضيّة على الشّيوعيّين كانت وما زالت من قبل السّلطة وأعوانها الّذين كانوا بين ظهرانَيْنا وعرف الشيوعيّون كما يعرفون الآن ومعهم رفاقهم في الجبهة من أين تؤْكل الكتف وكيف السّبيل بين السّكاكين الحادّة دون أن يُصاب أحد بأذى، فسلامة الشعوب أمانة في أعناق قيادتها والجميع يذكر كيف عُلّق طيّب الذّكر توفيق زياد (أبو الأمين) على خشبةٍ من رجلَيْه في المعتقل ليُبدّل تبديلا لكنّ رفاقه وحزبه ما بدّلوا تبديلا إلى يومنا هذا، ولو كان معنا الآن لسار على هُدى ما كان عليه. وبقي الحزب بجبهته العريضة ومع شعبه كعشرين مستحيل مُتشبّثًا بأرضِهِ شوكة وصبّارًا وقطعة زجاج في حلوقهم، لا نرحل.. وبالدّم الزّكيّ لا نبخل.. لأنّ في قلوبنا جهنّم حمرا وفي أعصابنا برودة الجليد، هذا ما جاء من وحي وهدي ذلك

الّذي عُلّق على خشبةٍ من قدميْه، فكانت قدماه بمُستوى وُجوهِهم بل وأعلى من رؤوسهم، وبقي "هُنا على صدوركم باقون كالجدار".

القيادة المسؤولة تعرف كيف توصِلُ المركبَ برّ الأمان. تعرف القيادةُ قيادةَ المركبِ حسب بوصلة صحيحة وفنار مضيء وهّاج على شاطئ الأمان. علّمتنا قيادة حزبنا الشّيوعيّ أنّ هذا هو وطننا وليس لنا وطن سواه وليس من بديل لهذا الوطن الأم، فإمّا الخنوع وإمّا النّضال والنّصر، إمّا البقاء أحياء مرفوعي الهامات منتصبي القامات فوق أرضنا بشرف وإباء، بكرامة وشهامة وإمّا أن نُدْفَنَ فيها، لا خيار ثالث، وحين خُيّر المُناضل داود تركي أبو عائدة عند تحريره في عملية "النّورس" لتبادل الأسرى من العام 1985، بعد أربعة عشر عامًا ونيِّف من الأسر، بين البقاء والهجرة، اختار البقاء والنّضال في وطنه الصّغير على أن يعيش في وطنه الكبير.

فكما قال المُتنبّي:

إذا غامرت في شرف مرومِ فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقيرِ كطعم الموت في أمر عظيم

14

حين نُشرت الحلقة السّابقة من يَوْمِيَّات بَرْهُوم البُلْشُفِيّ، في حينه، فـي صحيفـة "الإتّحاد"، إتّصَلَ بـي الرّفاق أديب أبـو رحمون، وعلي حريكة وعبّاس زين الدّين مشـكورين، لمُسـاعدتي في إيجاد اسـم الرّفيق الموجود بين طيّبيّ الذّكر علي عاشور ويوسف صبّاغ لإعطائه حقّـهُ، فقد توصّلنا إلى الاسـم وهو الرّفيق والأسـتاذ أحمد خطيب، أبـو إياد، من قرية المكـر والّذي نتمنّى له الصّحـة والعافية والعقل السّليم والعمر المديد. لقد أردْتُ الاتصال بأبي إياد بعد انتهاء ساعة دوامي في المُستشفى، ليكون لحديثنا تعارف وتقارب وشجون، لكنّه سـبقني مؤكّـدًا لما قد عرفتُه مـن الرّفاق أنّه صاحب الرّسـم. لكنّه سَرَدَ لي قصّة هذه الصُّورة. (يُنظر ملحق الصور).

التُقِطَت هذه الصّورة في بُسـتان الشّيوعيّة في حيّ وادي النّسناس، فـي عـام 1966 حيـث كان مكتـب صحيفـة "الإتّحـاد". فقـد كانت المناسـبة حفـل وداع الرّفيـق متيّـا نصّار، بعـد أن قرّر السّـفر إلى الأردن (الضّفّـة الغربيّة لنهر الأردن) ليلتحق بعائلته بعد أن شـتّتها وفرّقها وقسّمها الاحتلال أسوة بكثير من العائلات الفلسطينيّة، بعد

أن قسّـم الاحتلال شـجرة الياسمين الفلسـطينيّة، الوطن. فقد كان الرّفيق متيّا نصّـار محترفًا حزبيًّا ومديرًا لمطبعة "الإتّحاد ."كما كان هنا، كان هناك، على العهد. لم يغيّر ولم يُبدّل طريقه ووجد نفسـه بين رفاقه وإخوانه في الحزب الشّيوعيّ الأردنيّ والّذين عرفهم في فلسـطين منذ أيّام "عُصبة التّحرر الوطني" قبل نكبة شـعبنا. لكنّه سـرعان ما وجد نفسـه بين الرّفـاق الّذين ودّعهم فـي حيفا عندما احتـلّ الجيش الإسـرائيليّ الضّفّة الغربيّة لنهـر الأردن وقطاع غزّة لتكتمل نكبة الوطن بنكسته، وليبقى الوطن بشقّيهِ رازحًا تحت نير الاحتلال مُضافًا إليه الجولان السوري وسيناء المصرية.

فـي إحدى مُظاهرات الحزب في حيفا كاد يتعرّض الرّفيق متيّا نصّار إلى اعتـداءٍ من قبل مهْووسٍ من "كومانـدو آرمون"، خلال مظاهرة ضـدّ النازية وفي ذكرى النّصر عليها. فحين اقترب ذلك المُعْتدِي من أبـي جوني كان له برهومٍ بالمرصاد، إذ حمى أبا جوني من الاعْتداء، مشْبِعًا ذلك المهْووس ركلاً وضربًا وفي نفس الوقت كان أخوه صخر، بطرس، يضرب بعصيّه كلّ من يقترب للدّفاع عن المُعْتدِي.

أمّا الأسـتاذ أحمد خطيب فقد كان يشغَلُ منصب مدير مدرسة المكر حتى شهر آب من العام 1965، عندما فُصِل من سلك التّعليم بعد أن كشـف جهاز "الشّين بيت" أنّ الأستاذ ينتمي للحزب الشّيوعيّ ويُمثِّله في نقابة المعلّمين، من خلال كتلـة المعلّمين الدّيموقرطييّن، فقد كان العضـو الثّانـي في الكتلة بعد العضو داني بيتـار. وهذا ما يدُلّ على مـدى تدخل أجهـزة المخابرات فـي التّربيـة والتّعليم من تلك الأيّـام وإلى يومنا هذا، كما هي الحال في باقي المجالات من سـلك التّدريـس والتّعليـم والتّعلّم، إلـى القبول في الجامعـات والمصانع والمكاتب والدوائر الرّسميّة وغير الرّسميّة. كلّ شيء مُراقب وبدرجة عاليـة وفائقة الإحْكام من أجل إرهاب وترهيب الجماهير لفرض جوّ

الشّكّ عليهم في كلّ شيء والتّشكيك في كلّ شيء، لتكون القناعة عند جماهير شعبنا أنّه حتّى الحيطان لها آذان تسمع وتنقل ما تسمع لمن يهمّه الأمر ليُحاسِب.

"إذا تكلّمت في النّهار فالتفتْ، وإذا تكلّمت في الليل فاخفتْ..." عمل أبو إياد خلال سنة ونيّف مُنقّحًا للّغة العربيّة في صحيفة "الإتّحاد"، وبعدها عمل موظّفًا في مكتب للمحاماة مع أخيه المحامي هاشم خطيب، الّذي يشغل الآن منصب قاضٍ في المحكمة. بعدها كان أبو إياد مُحترِفًا في الحزب إلى أن تقلّد منصب القائم بأعمال رئيس المجلس المحلّي للمكر عن الحزب الشّيوعي والجبهة لاحِقًا حتّى العام 1989.

قائمة المعلّمين الّذين طُرِدوا واعتُقِلوا وفُصِلوا من سلك التّعليم طويلة جدًّا. بعد أن رفضوا كلّ محاولات الإغراء من توظيف وتعيين وتنصيب بمركز تعليميٍّ مرموق حتّى لو لم تكن له الكفاءة وصرف معاش عالٍ و... لكن هيهات.

أرادوهم ختمًا، أرادوهم ببغاوات، وطبولاً جوفاء، أرادوهم كمثل الحمار الذي يحمل أسفارًا، أرادوهم أن يُعلّموا طلاّبهم "كيف جفّفنا مستنقعات الحولة وأقمنا المستوطنات" وأن يُنْشِدوا مع طُلاّبهم "عيد استقلال بلادي" وأن يُدرِّسوهم لإلقائها قصيدةً في الاحتفالات "نورٌ تألّق في سماء المشرِق" عن ظهر قلب وأرادوهم معلّمين ليُخَرِّجوا طُلابًا حطّابين وسقاة ماء ورعاة. لأنّهم يخافون من الكلمة والدّراسة والتّطوّر. فالكلمة والقلم الّذي يكتبها والعلم الّذي ندرسه ونتعلّمه أقوى وأمتن سلاح. فقد جاء في الحديث الكريم: فضل العلم خير من فضل العبادة اطلب العلم ولو في الصين. فكم هو العلم مُهمّ في تطوّر الأمم.

مـا أجمـل الذّاكرة ومـا أروع الذّكرى لأهـل الذّكرى لأنّهـم الماضي والحاضـر والمُسـتقبل، عندمـا تكون الذّكـرى الناقوسَ والمشـكاةَ المضيئة والمُضاءة بأهلها وناسـها، وعندمـا نمنعها من المرور بين ثقوب غربال الذّاكـرة، لأنّها يجب أن تبقى عالِقة وثابتة في الغربال وبين مساماته.

ومـا أنجعها عندما نسـردها ونسـجّلها بكل جرأة وشـجاعة وصدق وأمانة وإخلاص كي لا تُنسى أو كي لا يتناساها البعض وكي لا تُدفن فـي التُّراب مع مواراة صاحبها الثّرى. فمـن كانت قيادته معه وعلى الأرض نفسها الّتي يعمل فيها لا يهون ولا يحزن لأنها تُشاركه همّه وجُرحَـه لتنصره وتكون يدهـا الدافئة الدّائمة على النبض لتَجسّـه ولتعـرف ما هو المُمكن وما هو المعقول وما هي الطّاقة الّتي يُمكن أن يتحمّلها.

وعندها تكون القيادة ثابتة على موقفها وثوابتها. فكما قال د. بشّار الأسـد رئيس الجمهوريّة العربيّة السّـوريّة في زيارتـه لدير الزّور: عندمـا تكون هذه الجـذور مزروعة في الخارج وتُسـقَى في الخارج وتُغـذَّى في الخارج.. عندها يقطعون عنها الماء فيسـقط أصحابها.. أما عندما تكون هذه الجذور في داخل الوطن وتُغذّى من قبل الشّعب وتنمى من خلال عاداتـه وتقاليده وتاريخه فهي لا تُعزَل إلا من قبل الشّعب فقط.. والشّعب يفتح ذراعيه لكل من يعمل بصدق وإخلاص من أجل خدمته.

وكمـا في روايته "الآن.. هُنا أو شـرق المتوسّـط مـرّة أُخرى" يقول الأديـب عبد الرحمن مُنيف، عندمـا كان يُناقش طالع العريفي، بطل الرّوايـة، رفيقـه الّذي تعرّف عليه في مستشـفى كارلـوف في براغ عاصمة جمهوريّة تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية، آنذاك، أثناء تلقيهما العـلاج الطبّي بعد تحريرهما من سـجن العبيد فـي منطقة موران:

... أمّـا عندما بدأ ضرْبنا فقد تخلّى النّاسُ عنّا، لأنّنا تخلّينا، من قبل، عـن النّاس، وتـوارى قادتنا، سـافروا، وتُـرِك الصّغار لكي يُسـدِّدوا الفواتيـر المُسْـتحقّة، تمامًا كما يُترك الخدَم بعـد انتهاء الحفلة من أجل جمع البقايا والنّفايات".

15

اهتمّت قيادة الحزب بالفنّ، من غناء وإنشاد ورقص وتمثيل.

"فالفـن هو خندق الشـعوب الأخير. خنـدق الدفاع عن مُثـل الحريّة والسّـلام والدّيمقراطيّـة والتّعدديّة، فلندافع عن هـذا الخندق. وما دمنا نصـون الثّقافة ونحمي الإبداع، فهذا دليل حيّ على أننا شـعب حيّ"، بهذه الكلمات خاطب شـاعرنا الكبير سـميح القاسـم الحضور الغفيـر في افتتاح "المهرجـان الدولي الثّاني للتّمثيـل الصّامت" في مدينة شفاعمرو.

المغنى حياة الرّوح، والإنشـاد غِناء الرّوح والجسـد والتّفكير والحياة خاصّة حين يكون النشيد من كلمات الضمير الحيّ، النّابع من وجدان الشّـعب النّابـض وحبّ الوطن الأسـير والتّضحيـة والصّمود للكفاح والأمل بالنّصر الآتي الّذي نراه قريبًا، ويَحُثّ على التّخلُّص من القيود لأنّ علينا أن نعرف من أين ومتى تؤكل الكتف:

من بهاء الطّبيعة في قُرانا المنيعة
نتلقّن سرّ الجمال

من هزيم العواصف والرّعود القواصف
نستمدّ فنون النّضال

ويُتابع النشيد ليَصِلَ إلى:

قد كفاكم تمادي يا لصوص (فاشيست) البلاد
وكفانا خنوعًا وعار

من نشيد القرى الثّائرة، تأليف الأستاذ حنّا أبو حنّا.

ولقد كانت لكلّ منطقة أو فرع فرقته الإنشاديّة. ففي حيفا كانت هناك فرقة أناشيد ورقص تحت إشراف وتدريب الرّفيقة حايا توما. وكان الحزب يقيم المهرجانات القطرية للصّحافة، والرّياضة والرّقص والغناء. وأحيانًا كان يقيم الرّفاق أسبوعًا كاملاً في أحضان الطّبيعة تحضيرًا للمهرجان. ويروي برهوم أنّه في أحد مهرجانات الصّحافة الشّيوعيّة في أحراش الكرمل، أقاموا في المكان مدّة أسبوع، لحين موعد الافتتاح، حيث حرسوه ونظّفوه وهيّأوه وأقاموا فيه برجًا خشبيًّا عاليًا لمراقبة التّحرّكات الصّديقة والمشبوهة والمأجورة، مع مصابيح تضيء وتنير الطّريق بقوّة مولّد للكهرباء.

كان الرّفاق في الشّبيبة والحزب يفتتحون اجتماعاتهم في الخلايا الحزبيّة أو في الكادر بأناشيد ثوريّة محليّة وعالميّة تُثير بمضمونها الرّوح الثوريّة عند الشّباب وتدبّ فيهم العزم والقوّة والإرادة والجرأة والشّجاعة. كانوا ينشدون الأناشيد في مظاهراتهم، في رحلاتهم، في سهراتهم، وأحيانًا بشكلٍ تلقائيٍّ وهم يسيرون في الشّارع. وبعفويّة فائقة يبدأون بالإنشاد.

لقد تميّزت وبرزت وعلا نجمها على غيرها من الفرق الإنشادية من باقي الفروع والمناطق، جوقة الطّليعة للإنشاد في النّاصرة. فقد كان لها حضورٌ مميَّزٌ بين الجمهور ووجودٌ مميَّزٌ في قلوب الرّفاق

ووجدانهـم وكذلك على المسـرح. ولولا وجود الرّفيقة وردة شـومر - حبيب (أمّ السّـعيد) فـي حيفا لما "تطاولتُ" علـى منطقة النّاصرة لأكتب عن هذه الجوقة، ففي هذا السّياق أكتب عن الجانب الحيفاوي من الفرقة، فأمّ السّعيد الآن محسوبة على حيفا والموسيقار ميشيل درملكنيان هو الآخر محسوب على منطقة حيفا، تاريخيًّا.

وأطلُبُ المعذرة من رفاقي النصراويين.

لقد كانت الجوقة تقع تحت ضغط وكبت سلطوي مزدوج، حيث كانت السّـلطة تعمل جاهدة لكبتِ روح الشّباب الثّوري والتّحرّري لإحباطه وإرهابـه، ومن ناحية أخـرى كَبْت مجتمعِنا الذّكوري بطبعِهِ للنّسـاء عامّـةً وللرّفيقـات خاصّةً: "وهل يُعقل أن تظهر البنت بفرقة نشـيد مع شـباب وعلى المسـرح وأمام الجمهور أو أن تُسـافر خارج بلدتها أو خـارج حـدود الوطن لعرض غِنائـيّ" بدلاً مـن "أن تجلس بالبيت وتُلازمـه لخدمةِ أهل البيت ريثما يأتـي ابن الحلال للزّواج". لقد كان للجوقـة نوع من التّمرّد البنّاء والخلاق والتّحـدّي لأمور رجعيّة والّتي تُحْبط تقدّم المجتمع.

لقد تأسّسـت الجوقة بعد النّكبة بشـهور، في شهر أيلول 1948 في مدينة النّاصرة وذلك خلال أحد اجتماعات عصبة التّحرّر الوطني.

وتصـوّروا التّوقيت، فبعد الاحتلال تتأسّـس فرقة للإنشـاد! وإن دلّ على شـيء فهو يـدُلّ علـى روح المقاومة والتّضحيـة ورفض الذّل والعنصريّـة وقبول الإخاء والتّسـامح وأخذ كلّ ذي حـقّ حقّه. يُذكر أنّ لعُصبة التّحرّر كانت فرقة للشّـبيبة وكان اسـمها "إتّحاد الشّبيبة الديمقراطيّة" وكانت لها نشـرة أسـبوعيّة اسـمها "صوت الشّـبيبة" وكانت تُنسـخ على طريقة الستانسـل لتـوَزّع لجميـع النّاس. فبعد انتهاء الاجتماع أنشَـدَ الرّفاق مع فرقة "رون" لفرع الحزب الشّـيوعي

في تلّ أبيب نشـيد الأمميّة، ممّا أثار الرّفـاق في النّاصرة وحزّت في نفوسهم النشوة وعزّت عليهم عدم معرفة كلمات النّشيد بالكامل أو لحنه، وأرادوا حفظ هذا النّشـيد، فتوجّه الرّفيقان طيّبا الذّكر بشارة عبّـود وصليبا خميس والرّفيق حنّا أبو حنّا إلى الموسـيقار ميشـيل درملكنيان الّذي كان حاضِرًا الاجتماع وأعطى مباركته للفكرة وأخذت التدريبات مجراها.

واسـتأجروا غرفة قبالة المسـكوبيّة واسـتأجر الموسـيقار ميشـيل درملكنيان البيانو من حيفا ونقلـه إلى النّاصرة. وكان حينها الرّفيق طيّـب الذّكـر صليبا خميس سـكرتير العُصبة فـي النّاصرة، وكذلك يعـود فضل تأسـيس الجوقة للرّفاق والأخوة مـن عائلة عبّود نهيل وسلوى ونقولا ونعيم.

وبعد اتّحاد عُصبة التّحرّر وشـبيبتها بالحزب الشّيوعي تأسّس اتحاد الشّبيبة الشّيوعيّة في البلاد.

بـدأت الفرقة كجوقة للرّفيقات وبعد ذلك انضم رفاق الشـبيبة إلى الجوقة. وكان للمرأة مكانة كبيرة وعالية الاحترام فقد أنشدت جوقة الطّليعة لهُنّ نشيدًا من كلمات الرّفيق حنّا أبو حنّا أيضًا:

أنهضِي وانبُذي القيود

إنّما أنت للوجود

نوره الباهر السّني

يا ابنة العالم الجديد

حطّمِي ذِلّة العبيد

أدركِي العالم الهني

كانت جوقة الطّليعة تُحيي المهرجانات والمؤتمرات الّتي كان يُقيمها الحزب بأناشـيدها الثّوريّة والوطنيّة المحليّة والعالميّة وكذلك كانت تجوب القرى والمدن. وكان حضورها في كلّ مناسبة من أهمّ أسباب نجاح الاجتماع، مع أنّ آلات الجوقة الموسـيقيّة كانت عبارة عن عود، كمان وطبلة، وكانت في النادي آلة رابعة هي البيانو، والعازفون هم فرح عبود على العود، باسـم جبران على الكمان، الموسيقار ميشيل درملكنيان على البيانو لكن لم أعرف اسم عازف الطّبلة.

وقـد مثّلت جوقـة الطّليعة الحزب في عدة مهرجانـات محليّة ودوليّة مثل موسـكو ووارسـو وبوخارسـت ويذكر برهوم أنهـا حازت على الجائزة الثّانية للإنشاد في بوخارست وموسكو في الخمسينيّات، من القـرن الماضي. وكذلك في مهرجان كيبوتـس "غبعات برنر" حازت على المرتبة الثالثة في الإنشاد من بين عشرات الجوقات المشاركة، وهذا يُعدُّ إنجازًا رائعًا.

وتذكـر أمّ السّـعيد أنّها سـافرت مع الجوقـة مرّة إلى قريـة عيلبون الجليليّة للمُشـاركة فـي مهرجان قطريّ أقامه الحـزب للتّضامن مع رفـاق فرع عيلبون في تصدّيهم للهجمة السّـلطويّة الشّرسـة الّتي بدأها زعران السّـلطة في البلد وبإيعاز من الشّـرطة نفسـها، للحدّ والنّيل من نشـاط الرّفاق ومن عزيمتهـم فقاموا بحرق بيت الرّفيق سهيل زريق، الّذي استُشْهد وهو في مقتبل العمر دون سببٍ أو ذنب. لكن هذا لم يثنِ إخوته ولا أهله عن مسيرتهم.

وكان علـى أعضـاء الفرقة كما علـى غيرهم من الرّفاق اسـتصدار تصاريـح من الحاكم العسـكري في النّاصرة، لِيُسـمح لهم بموجبها بالسّـفر مـن النّاصرة إلى المكان المنشـود، وفي هـذه الحالة كانت وُجهَتهـم، عيلبـون (ورواية أخرى تقـول أنّ اتّجاه الرّفـاق كان كفر ياسـيف وليس عيلبون). وحين بدأت الفرقة بالإنشـاد وإذ بالشّرطة

تداهم المكان لتعتقلهم مُفتّشةً عن التّصاريح وما كان من الرّفاق الّذين لا يملكونها إلا الهروب إلى أحراش عيلبون والاختباء هناك، لكنّ سرعان ما وجد رجال الشّرطة مخبأهم وقاموا باعتقالهم جميعًا، وزجّوا بهم في سجن مجد الكروم.

وكما تروي الرّفيقة أم السّعيد أنّ عدد المعتقلين كان يفوق السّبعين مُعتقلاً، حيث انطلقت حناجرهم بإنشاد أناشيدهم الوطنيّة، والأمميّة، وبهذه الطريقة دبّت العزيمة والشّجاعة والجرأة وعدم الخوف في نفوس الرّفاق ليواجهوا الاعتقال بهامة منتصِبة ومرفوعة لا تعرف الانحناء أو المهانة كنشيد ظلام يا ظلام وقد كتب الكلمات الأستاذ والرّفيق حنّا أبو حنّا بطلبٍ من طيّب الذّكر الرّفيق باسم جبران في طريقهما مع جوقة الطّليعة مسافرين في سيّارة شحن إلى مدينة بيتاح تكفا (ملبِّس) وقد كتبها على ضوء القدّاحة، أنشرُ مقطعين منه:

ظلام يا ظلام نظامكم ما يدوم
هذي شعوب الأرض هبت على الظلّوم
كالعاصف الصّخّاب تجتاحكم كالنّار
تقضي على الظّلم والاستعمار

يزيدنا الإرهاب عزمًا ومضا
لنا الغد البسّام ويومكم مضى
أخوّة الشّعوب هدانا والمنار
تهدي سبيلنا للانتصار

وكان لحن بعض الأناشـيد روسـيًّا مما حدا وشـجّع بعض السّـجناء من أصل روسـيّ الانضمام والإنشـاد مع الرّفاق المُعتقلين كنشـيد يا شعوب الشّرق والأمميّة ونشـيد العودة، وهذا النّشيد الأخير أيضًا من كلمات الأسـتاذ حنّا أبو حنّا، ولحنُهُ على ما يذْكُرُ برهوم هو لحن نشيد البحّارة السّوفييت، وهو أوّل نشيد أنشدتْهُ فرقة الطّليعة وهذا مقطع من النّشيد الّذي يدُبُّ في الشّعب الرّازح تحت الاحتلال الأمل:

بلادي تُرى أعودُ أرى ربوع الحِمى أرضَ هواي
تُراني أعود فعبرَ الحدود دياري ومهد صِباي
لا لن يطول بُعْدي وسوف أُبصر عودي
نعم سأعود وتُفنى القيود وسوف أراك حِماي

ومن الأناشـيد الّتي أُنشِدت هناك أيضًا، كان نشيد السّلام من تأليف الأستاذ حنّا أبو حنّا وهذا مقطع منه:

صوت الشّعوب دوى عاليًا في كُلِّ أرضٍ يهُزُّ القلوب
للسّلم ينشِدُ مُنتشيًا عذْب النّشيد مُهيبًا حبيب

إلى الأمام جيش السّلام
من كُلّ لونٍ ودين
إلى الأمام لمحْوِ الظّلام
نبني سلامًا لنا أجمعين

هذا الأمر أثار وأغاظ إدارة السّجن الّتي قامت بنقلهم إلى سجن عكا وهناك تكرّرت نفس حادثة سـجن مجد الكروم، وانتقلوا بعدها إلى سـجن العفولة، أو سجن طبريّا حسب رواية أخرى، ومن هناك أُطلق سراحهم. وبهذه الطّريقة نقلوا المهرجان إلى السّجون.

يذكر برهـوم أنّ الموسـيقار ميشـيل درملكنيان، مايسـترو جوقة

الطّليعة كان من سكّان حيفا قبل النّكبة، وكان يسكن في شارع مار يوحنّـا بالقرب من تقاطعه مع شـارع أللنبي. وله أخوان هما جوزيف وديكـران. وكان ديكـران حارس مرمى "شـباب العـرب"، فريق كرة القـدم الحيفاوي وكانـت تربطه علاقة حميمة جدًّا مع أخيه الشّـاعر والمناضل داود تركي.

كانت غرفة التدريبات جانبيّة ومُحاذية للنّادي الواقع في حارة السّوق قُرْب الجامع الأبيض، فقد كانوا يحفظون النوتة بدايةً وينتقلون إلى حفظ الكلمات والإنشاد، كانت التدريبات تستمرّ ساعات طوال لدرجة أنّـه كان علـى الرّفاق مرافقـة الرّفيقات بعد الانتهاء مـن التّمرين، لإيصالهـن إلى بيوتهن حتّى لا يصلنها تحـت جُنْحِ الظّلام لوحدهن، وفـي طريقهـن لبيوتهن كانوا يسـمعون أطفـالَ الحارة يُنشِـدون أناشيدهم الّتي سمِعوها منهم وقت التدريبات.

كانـت تُقام أيضًـا دورات ماركسـيّة، امتحانات وجوائـز، فكما كانت فرقة إنشـاد في الناصرة كانت لفرع تل أبيب فرقةً مُميّزةً للإنشـاد تألّقت هي الأخرى واسـمها "رون" (أغنية) والّتي أنشـأها طيّب الذّكر الرّفيق ساشـا حنين ذو الصّوت الجميل، وعلى ما يذكر برهوم أيضًا أنّ غالبيّـة أعضائها كانـوا من الرفاق البلغار، وكان مايسـترو فرقة "رون" يُدعى كونردمان.

وها أنا أورد أسـماء أعضاء جوقة "الطليعـة" والّتي تتكون من أربعة أصوات حسبما تتذكّرهم الرّفيقة وردة شومر حبيب:

1. سـوبرانو: عفاف ديب، سـلوى عبود ، هنيّة شـومر ، هناء خوري، إيفون خوري وسلمى شومر.
2. التسـو: وردة شـومر، أوديـت نمر، نهيـل عبّود، جيهـان خبيص، إخلاص ديب وفيكتوريا ديب.

3. بيس: بشارة معمّر، شوقي مزبر، باسم جبران، إبراهيم أبو نوفل، وجريس شومر.

4. تينور: جميل العمران، سامي بدين، جريس شومر، رياض صبّاغ، سليم صيقلي وكامل خوري.

لقد كان لِقائي مع الرّفيقة أمّ السّعيد في قلعتها في حيّ عبّاس لِقاءً حميمًا اكتشفتُ من خلاله جهلي وعدم معرفتي بها وبهذا التّاريخ العريق الّذي تحمله. فقد كَرَّمَتْها هذه السّنة منطقة حيفا للحزب الشّيوعيّ مع عدّة رفاق وأنصار الحزب في شهر آذار من هذه السّنة وعلى شرف يوم الأرض الخالد في ذكراه الخامسة والعشرين، فهي ما زالت مُخلصة وأمينة لهذا الفكر المُنير وعدالته الاجتماعيّة وأخوّة الشّعوب وتعطي حزبها كلّ ما تملك بتفان وإيمان راسخ وثابت. وفي طريقي إليْها وجدْتُ دلوًا مربوطًا بحبلٍ يتدلّى من شرفتها للشّارع، وعندما سألتُها "ما هذا" أجابت "بدّي أهوّن على موزّع "الإتّحاد" من مشقّة الطريق وتعبها، حتّى أضمنها". عرفت حينها، ارتباطها العضويّ بصحيفة الحزب وأخبارها ومقالاتها وعرفت سبب، أنّه حين يرنّ جرس هاتفي الجوّال صباحًا أعرف أنّ أمّ السّعيد لم تستلم الصّحيفة هذا الصّباح ونبدأ باتّصالاتنا كي تصلها في الحال.

من أجمل الأناشيد التي أُنشِدَت وحُفِظَت عن ظهر قلب، وانتقلت جيلاً وراء جيل كان نشيد الشّباب الدّيمقراطي العالمي، وهو نشيد يُنشده شباب العالم كلٌّ بلُغتِهِ وكلّهم بلحنٍ واحدٍ ونغمٍ موحَّدٍ. أنشر هذا النّشيد نزولاً عند رغبة الرّفيقين وردة وبرهوم، آملين من الجيل النّاشئ ومن شبابنا حفظه والسّير والعمل على هُداه، لكن ليس قبل أن أقصّ عليكم كيف كُتبت كلماته: أتى الموسيقار ميشيل درملكنيان، مايسترو جوقة الطّليعة، باللحن العالميّ حاضرًا مع النّصّ باللغة الإنجليزية للأستاذ حنّا أبو حنّا، وبدأ الأستاذ حنّا

بترجمة النّصّ انسِجامًا مع اللّحن، وأحيانًا كان يَطلبُ الموسيقارُ تغيير كلمة من الكلمات المُترجَمة ليتناسق مع اللحن، إلى أن خرج النّشيد بصورته الحاليّة وقد تبنّته الحركات الشّبابيّة الوطنية والشّيوعيّة الأخرى في الوطن العربي. ولِننشِد هذا النّشيد سوّيّة بحناجر الصّوت العالي مهما كان نوع أو جمال الصّوت وبقبضات مُقْفلة ومرفوعة كما كانت دائمًا وكما هي اليوم فهي قبضات العمال والفلاحين والمُثقّفين الثّوريين والنّشيد هو:

نشيد الشّباب الدّيمقراطي العالمي

نحن شدنا المعالي وسنبني حياة السّلام
نحن أُسدُ النّضال وحّدتنا الأماني العِظام
فشباب البلاد هُمُ رمز الجهاد
أشدوا وشيدوا يحلو النّشيد
لحن الهنا هيّا
إنّنا نشيد في الورى الحياة الحياة الحياة
سوف نُشْهِدُ الورى بأنّنا أقوياء أقوياء أقوياء
فإنّما النّضال روح للشّباب
إنّنا نشيد في الورى الحياة الحياة الحياة
ذَكَّرْتنا الحروب دمُ أبطالِنا الخالدين
جَمّعتنا الخطوب إخوة نحن في العالمين
سعيًا للانتصار سَعْيًا أُسْدُ الدِّيار
هيّا نُنَاضِل جيلَ البواسل
جيل العُلا هيّا

16

قوت الكادحين هي جمعية تعاونيّة، غير استثماريّة أو رِبْحِيَّة، أقامها "مؤتمـر العمّال العرب" بقيادة الشّـيوعيّين بعـد الاحتلال، في أوائل خمسينيّات القرن الماضي، على مستوى القُطُر، ليضمن لقمة عيش العمّال، ليعيشوا بشرفٍ دون مِنّةٍ من أحد، من خلال فتح بقالة تعاونيّة لتحمي جمهور العاملين من منشـار "السّوق السّوداء" في زمن شراء المواد الغذائيّة مقابل بطاقات تموين من دائرة التّموين، حيث كانت تمنح هـذه الجمعيّة أعضاءها، احتياجاتهم الغذائيّة بأسـعارٍ مُراقبَة كالطّحين والحليـب ومنتجاته والبيض والسّـكّر والملح والقهوة كلاً حسـب حاجته وفي موعدٍ مُحدّد فـي وقت كان بعض أصحاب البقالة يخزنون بضاعتهم ليبيعوها في وقت لاحق بأسعارٍ عالية حين كانت تنقص من السّوق.

كانـت الجمعيّة تمتلك فروعًا عديدة ومُوَزّعة على بعض قرى ومدن الجليـل وفـي حيفـا أيضًا، حيـث كانت تعاونيّـة عبلّين هـي الأنجع والأنجـح. كانـت الجمعيّـة التعاونيّة في حيفا تمتلـك بقالة ومطعمَ قوتِ الكادحين في شـارع الخوري 24، وبقالة أخرى ومخزنًا للبضائع

الغذائيّة التّموينيّة في شارع المستشفى 16، (زاوية ماير/هميغينيم) حيث كان العاملون في الجمعيّة ينقلون البضائع من المخزن إلى حوانيت قوت الكادحين على عربات نقل بدائيّة، وكذلك كانت الجمعيّة تمتلك فرنًا (الفرن الأرمني) في شارع الخوري 41 (زاوية الوادي الخوري)، وقد كان للرّفيق زاهي كركبي (أبو خالد) الفضل الكبير في بناء ونجاح التّعاونيّة في مدينة حيفا.

كانت الجمعيّة التّعاونية تخدم جمهور العاملين من اليهود والعرب كافّةً، حيث كانت تُحافظ على حصصهم من المؤن، على مدار السّنة، فقد كان أعضاء هذه الجمعيّة يأتون لأخذ حاجِيّاتهم مقابل بطاقات أو كوبونات تموين كانوا يتسلّمونها من دائرة التّموين الحكوميّة، في زمن تقنين المؤن، وقد بلغ عدد بطاقات التّموين التّابعة لقوت الكادحين في حيفا حوالي ألف بطاقة، في حين لم تصل حوانيت أخرى أو تعاونيّات أخرى سُلطويّة إلى خُمس هذا العدد من البطاقات.

هذا عدا عن أنّه كان هناك عددٌ من المُساهمين في التّعاونيّة، من رفاق وأصدقاء من عائلة عجينة، زعطوط وبلان... ويروي برهوم أنّ إخوان بلان ومنهم زيدان وأنيس كانوا الحرس الأمين للحزب والشّبيبة في مظاهراتهما ومعاركهما، يدًا بيد مع الرّفاق، مدافعين عن المسيرة من أيّ اعتداء، مع أنّهم لم يكونوا رفاق حزب أو شبيبة.

وكذلك أبو صبري الزّعطوط طيّب اللّه ثراه كان معدودًا وجُنْديًّا من أصدقاء الحزب في كُلّ المعارك الوطنيّة الّتي كان يدعو الحزب الشّيوعي إليها. فَقَدْ بلغَ ثمن السّهم آنذاك حوالي الليرة وعشرة قروش.

لقد نشــط فيها العديد من الرّفاق يذكرهم برهوم بالاســم: توفيق الأســعد، توفيق صليبا، جوزيف عبده (رئيس التّعاونيّة) ، ديب فرح، عبد الحميد أبو عيطة، عسّــاف حناني، عصام العبّاســي، ســركيس أبريــان (مديــر التّعاونيّة، والّذي اختار العــودة، لاحِقًا، إلى وطنه الأم أرمينيــا ليُدفــن في تراب وطنــه الغالي)، إبراهيم أبــو غزالة، نجيب الفاهوم، نصري المرّ، كرم خوري، نور الدّين العبّاسي وعلي عاشور طيّب اللّه ثراهم جميعًا بكُلّ ما تحوي جعبة حاملات الطّيب من طيبٍ وعطر.

وكانــت للجمعيّــة لجنة مراقبة ماليّــة تقدّم التّقارير الماليّة بشــكل دوري، وهيئــة إداريّة مُنتخبــة تجتمع بشــكل دوري لبحث أمور عدّة تخُصّ التّعاونيّة.

واعذروني/نا إن نسيت/نا أحدًا.

لقد كان مطعم قوت الكادحين مُلتقى الرّفاق والأصدقاء بعد العمل، خاصّــة ذلك الواقع في زاوية شــارعي الخوري/صهيــون، حيث كانت صحيفتــا الحــزب صوت الشّــعب "كول هعــام" و"الإتّحــاد" معلّقتين على لوحة في جدار المطعم حتّى يتســنّى لروّاد المطعم من زبائن وعابري ســبيل قــراءة الصّحف الحزبيّة ليطّلعــوا على موقف الحزب الشّــيوعي من هذه القضيّة أو تلك. حيث كان يؤمّ المكان مواطنون من حيفا ومن القُرى المجاورة أو البعيدة الّذين أتوا المدينة بحثًا عن عمــل، إن كان فــي المصانــع أو المطاعم أو المقاهــي لضمان لُقمة العيش، وعندما كان العاملُ يُواجه مشكلة ما، كان الرّفاق يتوجّهون معه أو يوَجِّهونه إلى المكان الرّســمي والمُختصّ لكي يحلّ مشكلته أو يســاعده على إيجاد بديل، حيــث كان العمّال عامّةً والعرب خاصّةً، عُرضةً للاستغلال.

كنتَ تسمع من روّاد المطعم أو البقالة عن معاناة شعب طرده جيش الاحتلال من قراه ومدنه، كما كنت تتعرّف على الشبيبة العاملة وهمّها وعن استغلال صاحب العمل للشباب العمّال في عملهم، لذلك شكّل الرّفاق خليّة الشّبيبة العاملة وقاموا بإرسال الطّلبات أو الاستجوابات أو الوفود إذا احتاج الأمر إلى مركز مُنظّمة الشّبيبة العاملة الحكوميّة "نوعر عوفيد" مطالبين المنظّمة بالدّفاع عن حقوق الشّباب العمّال وعن حقّهم في الدراسة ضمن المدرسة الليْليّة.

وقد تجنّد الكثير من الشّباب إلى صفوف الشّبيبة بعد أن تعرّفوا وعرفوا تفاني وإخلاص الرّفاق، وقد شاركوا كأصدقاء مع الشّبيبة الشّيوعيّة في معارك الحزب اليوميّة التي خاضها كالمظاهرات والاجتماعات الشّعبيّة أو توزيع النّشرات أو توقيع العرائض وخصوصًا من اجل العمل والمسكن ودخول العمال العرب إلى "الهستدروت" أو توقيع عرائض ضد التّسلح الذّرّي أو عرائض من اجل رفع الحكم العسكري عن الجماهير العربيّة حيث لم تكن الطّريق سهلة لنيل الحقوق.

لقد وجّهني برهوم إلى الرّفيق عبّاس زين الدّين (أبو عصام) لتلقّي المزيد من المعلومات عن الجمعيّة التّعاونيّة، قوت الكادحين. فقد كانت تربط برهوم وأبي عصام علاقة رِفاقيَّة حميمة، فضلاً عن أنّهما كانا يتيمَيْ الأبّ، فهُما في الهمّ واحد وبقيت الصّداقة والمودّة والأخوّة إلى يومنا هذا وانتقلت إلى الأبناء، جيلاً وراء جيل، بالوراثة، وقد صدق الشّاعر حين قال:

فما أكثر الأصحاب حين تعدّهم

ولكنهم في الثّابتات قليل

لقد أُعجبَ الرّفيق أبو عصام بحيفا وفتنت ناظِرَيْه كثيرًا. فقد

رآهـا أوّل مرّة حين أتاهـا من النّاصرة رفيقًا ومشـارِكًا في مهرجان ومُخيّم الشّـبيبة الشّيوعيّة على سـفوح جبال الكرمل. قرّر الانتقال إلـى حيفا للعمل في قوت الكادحين بعـد أن حصل على توصية من طيّـب الذّكر الرّفيق سـهيل نصّـار، كان ذلك في أوائل خمسـينيّات القـرن الماضي حيث كان عمره سـتة عشـر عامًا، وكمـا هو معلوم كان عليـه أن يُصدِر تصريحًا يسـمح له بالانتقال مـن النّاصرة إلى حيفـا. فذهب إلى مكتب وزارة الدّاخلية لاسـتصدار التّصريح، وحين وقف في صفٍّ طويلٍ ينتظرُ دورَهُ للدّخول إلى غرفة التّصاريح، جاءه شرطيّ عربيّ، أبن النّاصرة، وطلب من الموجودين الالتزام بالوقوف فـي الصّف. وكان من بين المنتظِرين دخـولَ الغرفةِ طالبًا التّصريحَ رجلٌ مسنٌّ، فاقترب منه ذلك الشّرطي ودفعه إلى الحائط بقوّة على مرأى مـن الموجودين، الأمر الّذي لم يتحمّلهُ الرّفيق أبو عصام فقد تخيّل أنّ الشّـرطيَّ يُهين والده أبو أحمد رحمة اللّه عليه، فصرخ في وجه الشّـرطيّ شـاتِمًا ومؤنِّبًا علـى تصرفه مع الرجـل الّذي يمكنه أن يكـون في جيل والده أو والد ذلك الشّـرطيّ العربيّ، عندها أخذه إلى غرفة التّصاريـح وصفعه على وجهه وصادر هُويّته قائلا: "خلّي أبوك ييجي يوخد هويتك". وحين كان الرّفيق عبّاس كما ذكرتُ يتيمَ الأبّ، كيف ومن أين يأتي بوالده لأخذ الهويّة. فذهب إلى طيّب الذّكر الرفيق صليبا خميس، سـكرتير المنطقة، الذي قام بدور أبي عبّاس وذهب إلى المسـكوبيّة وحرّر هويّة أبي عصام. وحصل بعدها على التّصريح وانتقل للعمل والعيش في حيفا، إلى يومنا هذا.

ويروي الرّفيق أبو عصام عدّة حوادث، خلال عمله في التّعاونيّة الّتي كانـت معروفة أنّها تابعة للحزب الشّـيوعي، فبعـد مظاهرة صاخبة طافت شـوارع حيفـا أغضبت قُـوى اليمين أتى أحدهـم على درّاجة ناريّة وألقى بحجرٍ كبيرٍ على زجاج المطعم، ممّا أدى إلى كسره ومن

بعدها فرّ رامحًا قبل أن يلقى عقابه أو أن يُكْشَف!

ويتابع سرد حادثة أخرى تلازمه دائمًا:

كان الرّفيق أبو عصام يذهب إلى سوق الخضروات ليشتري الخضار والفواكه على أن يدفع المبلغ، وكان في حينه عشر ليرات، في الأسبوع الّذي يليه عندما يأتي لشراء البضاعة الأسبوعيّة للتّعاونيّة كما كانت العادة المُتَّفق عليها، وإذ بواحدٍ من عملاء السّلطة يأتي في اليوم التّالي مُطالِبًا بالدّيْن، مُهدِّدًا ومُتوعِّدًا أبا عصام إذا لم يدفع المبلغ له.

كان الرّفيق رياض المعلّم (عودة) حاضِرًا الاستفزاز، فأتى سائلاً عن الإشكال وعن طبيعة التّهديد لأبي عصام، وما أن بدأ بالتّطاول على الحضور وإذ باللكمات تنزلُ على أنفه من أبي نوّاف المعلّم، الأمر الّذي دعا المُعتدي بالهروب مُستنجِدًا بشلّته الّتي أتت مُهدِّدة أبي عصام بطلقة رصاص في جبينه، إذا لم يعترف لهم عن الرّفيق رياض، فقال لهم انّه مُجرّد عابر سبيل لا يعرفه ولا يستطيع معرفة كلّ الزّبائن الّذين يرتادون المطعم، وهكذا كان اعترافه في المحكمة الّتي لم تجد دليلاً لتجريمِ أيّ شخص.

وفي حادثة أخرى يسردها أبو عصام: أنّه حين طُعِنَ أحد المُعتدين من شباب اليمين بسكين داخل المطعم، كان المُتّهم حينها طيّب الذّكر يوسف عبده وقد أنكر الرّفاق هذه الحادثة أمام الشّرطة وأمام القاضي في المحكمة الّتي كان يدافع فيها عنهم طيّب الذّكر محامي الأرض حنّا نقّارة (أبو طوني)، وخلال سؤاله لأحد الشّهود على عمليّة الطّعن عن مكان وجوده خلال الطّعن، وكيف رأى المُتّهم، عاين له المكان، فقام أبو طوني بدعوة القُضاة للمكان، وعاينوا الموقع فوجدوا أنّه من المستحيل رؤية المكان من الموقع الّذي أشار

إليه فكم بالحريّ رؤية عمليّة الطّعن. وهكذا أنقذ أبو طوني الرّفيق يوسف عبده من التّهمة. وحُرّرَ المُتّهم بشهادة براءة من كلِّ إثم أو ذنب، وهكذا درأ مُحامي الأرض الحدود بالشّبهات.

وحدث مرّة أنّه حين احتاج الرّفاق تجديد التّصاريح الّتي كانوا يجدّدونها بشكل أسبوعيّ في مكاتب الدّاخليّة في مكان سكنهم حيث كان مكتب الدّاخليّة في حيفا يرفضُ التّجديد للغرباء وإذ بالرّفيق إدغار كركبي يحصل على التّصريح ولمدّة شهر وفي مكاتب الدّاخليّة في حيفا، فجاء مسرعًا إلى مطعم وبقالة قوت الكادحين حيث كان مُلتقى الرّفاق اليوميّ، ليُعلِن لكلّ من يهمّه الأمر من الرّفاق ممّن ينتظر تصريحه أن يَرْمَحَ إلى مكتب الدّاخليّة لإصدار تصريح طويل الأمد. وكان لهم ما أرادوا. وكان سبب الفرج هذا وجود موظّف "غَشِيم" وجديد، يُقال أنّه روسيّ لم يحفظ الدّرس كما لُقِّنَ فأعطى التّصاريح ولمُدّة شهر عن "جنب وطَرَف"، وبعدها حين علم مدير المكتب بالأمر دعا الرّفاق إليه، لكنهم رفضوا الحضور وركب مدير مكتب الدّاخليّة أعلى خَيْلَهُ.

ذات مرّة غَزَت قوّة من سلطة البثّ المطعم وذلك لعدم وجود ترخيص لجهاز الرّاديو الموجود هناك، وحرّرت للجمعيّة مُخالفة، فما كان من الرّفاق إلا الذّهاب إلى المحكمة مع جهاز راديو قديم، قد أكلت القوارض نصفه، وحين رأى القاضي ذلك الجهاز الّذي أكل الدّهر عليه وشرب مع القوارض، أعفاهم من كلّ جزاء.

بقي أن أذكر أنّ منطقة حيفا للحزب الشّيوعي قامت بتكريم الرّفاق القُدامى على شرف انعقاد المؤتمر الخامس والعشرين للحزب، وعلى شرف يوم الأرض بذكراه الثّلاثين، ومن بين الرّفاق الّذين كُرِّموا كان الرّفيق عبّاس زين الدّين وقد جاء في كلمتي التّكريميّة لأبي عصام:

الرّفيــق عبّاس زين الديــن رفيق إيثاري خدم أحيــاء الفقر في حيفا بدون حســاب وبدون كلل أو ملل وســاعد ســكان هــذه الأحياء على كيفيّــة انتشــال الحــقّ واللقمة من فم الأســد وحافظ علــى جريدة الإتحاد وعلى كلمة الحزب ونشرها بين الناس.

مــرّة أخرى، لتكــن وحدتنا الواحدة في الحزب الشّــيوعيّ وصدقنا مع أصدقائنا في الجبهــة الديمقراطيّة وصدقهم مع رفاقهم في الحزب الشّــيوعي وعملنــا (رفــاق الحزب والجبهــة) الصّــادق والمُخلص مع الجماهير وحسّــنا لنبض الشّــارع بوصلتنا لرفع شأن المركِب ليصلَ برّ الأمان والخلاص المنشود، فكما قال الإمام الشافعي:

سلامٌ على الدّنيا إذا لم يكُنْ بها

صديقٌ صدوقٌ صادقُ الوعدِ مُنْصِفَا

17

اليومَ أكملْتُ يومِيّات ذلك الشّاب البُلْشُفيّ اليافع خلال عشرينيّات عمره، وأتممْت عليكم ما صال وجال في خلدي سنوات، وحقَّقْتُ أمنيةً كانت تساور خاطري وتشغله، من حكايات وأناشيد كنتُ اسمعها من بَرْهُوم، في جلساتنا ورحلاتنا العائليّة حين كان يصدح صوته مُتْحِفَنا بأناشيد الشّبيبة الشّيوعيّة الثّوريّة حيث تعلّمناها عن ظهر قلب قبل دخولنا "أبناء الكادحين" أو حتّى روضة النّساء الديمقراطيّات في حيّ وادي النّسناس، ورضيتُ لنفسي ولمن استطعْتُ واستطيع الآن ومُسْتقبلاً التّأثير عليه بالنّقاش والحوارِ لأقنعه بالفكر الثّوري الذّي يُعالج جميع قضايا المجتمع والوطن والعالم بنظرةٍ شموليّةٍ، علميّةٍ، أمميّةٍ وثوريّة، من خلال مبدأ العدالة الاجتماعيّة. وبهذه الحلقة السّابعة عشرة والأخيرة لبَرْهُوم البُلشُفيّ، أكون قد طويتُ لِبَرْهُوم حقبة من زمنٍ صعبٍ ورديءٍ عاشها الشّيوعيّون بعد النّكبة مباشرة إلى أواخر خمسينيّات القرن الماضي حتى مُنتصف ستّينيّاته في مدينة هُجِّرَ أهلها واغتُصبت حرماتها وغُيِّرت معالمها وأسماؤها، أسوة بباقي قرى ومدن الوطن، تلك النّكبة التي ما زالت جراحها

تنــزف وتنزف وتنزف علّنا نرى بصيص النّور والأمل المفقودَيْن من دياجيــر عالمنا الذي تحكمه قــوى جائرة. حقبة فيهــا روايات واقعيّة عاشــها الرّفاق على جلودهم وكبدهــم، احترقوا لإنارة درب رفاقهم وشــعبَيْهم وحزبهم الشّــيوعي، ذاقوا المرّ بكأس من حنظل بشرف وكرامــة، والّــذي كان خيرًا من كأس المــاء العذب بالــذّلّ، دفاعًا عن الأرضِ والعِرضِ والوطنِ، دفاعًا عن الطّبقة العاملة، وحقوقها بأمل بسّــام وواعد، أَمل العدالــة الاجتماعيّة، في زمــنٍ كان يجب وما زال وجوبه إلى يومنا هذا، أن يكون البُلشُفيّ حاضِرًا في كلّ لحظة وفي كلّ مناســبة وفي كلّ معركة، وفي المكان الّذي يجب أن يكون مهيّئًا للعمــل أكثــر من غيــره، بإخلاصٍ وتفــانٍ وتضحيةٍ لا تعــرف مثيلها الأمــم، دون الانتظار لقطــف الثّمار، لأنّنا أبعد مــن أن ننتظر الجنيَ مقابل عملنا أو الأبعدون من مبدأ شــيء مقابل شيء ولو كان كذلك لجلســنا في بيوتنــا منذ البدايــة منتظرين الجنيَ وتمهيد وتســهيل الطّريق الوعِرة والموحِشة والمُتوحِّشة بضواريها.

فقد قال الشّاعر:

مَنْ عَاشَ فِي ذُلٍّ فذلكَ مَيِّتٌ ومَنْ مَاتَ عَنْ كَرمٍ فذلكَ خالدُ

لقد جاهد واجتهد وكَدَّ وَجَدَّ الرّفاق دون أن يُقصِّروا، دون كسلٍ أو ملل وضحّوا بغاليهم قبل رخيصهم دون السّــؤال عن "اللهم نفسِــي" أو "ما دام جسمي سالِمًا ما لي وما للآخرين". لقد ناضل رفاقنا في تلك الفترة بفكرهم وجســمهم وعملهم وتضحيتهم وسهرهم وتنازلوا عــن مُغريات وإغــراءات مفصليّــة فرديّة جمّة من أجل عــزّة الوطن وطبقته العاملة وحزبه الشّيوعي. فكما جاء على لسان الطّغرائي:

حبّ السّلامةِ تثني هَمَّ صاحبِهِ عَنْ المعاني ويُغْري المرءَ بالكَسَلِ

رفاق لهم ماضٍ عريق وتاريخ مشرّف وحاضر تصنعه سواعد الشّرفاء

البواسل ومستقبل سـوف نبنيه ونرصفه بالورد والعطر والرّياحين لأولادنـا وللأجيال القادمة. كانت وما زالت أفضليّة الرّفاق في الحزب الشّيوعيّ بجبهته العريضة والواسعة تنحصر في أن يكونوا السّبّاقين، كما كان رفاقهم السّابقين، للمعركة، معركة الأرض والبقاء، معركة العامل في مصنعه، معركة الفَلّاح على أرضه ومعركة العربي على كل شـبر من وطنه السّـليب لتحريره تحت شعار "الأرض للفلاحين" أصحـاب الأرض الحقيقيّيـن و"المصانـع للعمّال". لقـد كان وما زال الرّفاق السّـبّاقون والسّابقون يقفون منتصبي الهامات بشجاعة في جميـع المعارك النّضاليّة، والكفاحيّة وعمل الخير في صفّ المواجهة الأوّل، فكمـا جاء في الآية الكريمة: "والسّـابقونَ السّـابقونَ، أولئك المقرّبـون". ففي روايتـه "القائد" دوّن الكاتب السّـوفييتي بوريس بوليفـوي مُذكّرات قائد عسـكري بارز، يُدعى إيفان سـتيبانوفيتش كونيـف، في عِدّة جبهـات حربيّة طويلة ومُمْتدّة بيـن أعالي الفولجا إلـى مدينتَيْ برليـن وبراغ ضدّ الوحش النّازي خـلال الحرب الكوْنيّة الثّانية وحاصل على وسام أو رتبة مارشال الإتّحاد السّوفييتي والّذي قلّده إيّاه الزّعيم السّـوفييتي الثّاني جوزيف ستالين: "لقد تزايد عدد الأعضاء في حزبنا خلال أصعب أوقات الحرب، حين كان العدو يقتحم ستالينغراد، حين كان النّاس يموتون جوعًا في لينينغراد المحاصرة، وحيـن كانـت أفضليّة الشّـيوعي تنحصرُ في كونـه أوّل من يمضي إلى القتال وكونه يضطلع بتنفيذ أكثر المسـؤوليّات حساسيّة وأكثر الواجبات خطرًا، علّمهم الحزب التّسامح والتّساهل فيما يخصّ عيوب النّاس البسيطة، وفي نفس الوقت الحزم والمبدئيّة اللذين لا يعرفان المُهادنة، بل وحتّى القسوة، حين يكون الأمر مع أعداء الثّورة وأعداء الحـزب وقضيّته" (صفحة 121). وهكـذا كان رفاقنا وهكذا علينا أن نكون.

رفاق إيثاريّون، يرفضون الأنانيّة أو قول "ها أنذا"، رفاق تعرف البطحاء وطأتهم وتعرف أنّ خبطة قدمهم على الأرض هدّارة وليسوا جنودًا مجهولين، رفاق انضموا إلى حزب الطّبقة العاملة طوعًا وعلانيّةً، رفاق اقترن اسمهم بالشّيوعيّة، فهذا العبد الشّيوعي من حيفا (عبد زرعيني حنوني (أبو يوسف) طيّب اللّه ثراه) وذاك أحمد الحزب (أحمد شحادة (أبو رمزي) من كفرياسيف أطال اللّه بعمره) وتلك القرية اقترن اسمها بالحزب كالبعنة الحمراء، وبستان الشّيوعيّة في حيّ وادي النّسناس في حيفا، وحين كنت تسأل عن شخص ما في حارته أو بلده، حالاً يكون الجواب قبل أن يدلّوك على بيته آه هذا الشّيوعي، رفاق بنوا لحزبهم الشّيوعي العِزّة وقلعة الصّمود والكرامة بجماهيرهم الحاشدة والغفيرة وبالمقابل أعطى الحزب لرفاقه الفكر المُنير والشّموخ والإباء والانتماء والوفاء في مبادئه للأقليّة القوميّة العربيّة الفلسطينيّة في وطنها الّذي لا وطن لهم سواه، أخوّة الشّعوب عامّةً، والأخوة اليهوديّة العربيّة حصرًا في وطننا، دون فرق في الدّين، والتّضامن مع الشّعوب المظلومة والمُضْطَهَدَة وحقوق الطّبقة العاملة والدّفاع عنها، وحقوق المرأة ومساواتها بالرّجل، فكان الحزب الشّيوعي ورفاقه وحدةً واحدةً، موحَّدة وموحِّدة بتجانُس وانسجام لا مثيل لهما. لقد وضع الرّفاق نُصْب أعينهم بناء مجتمع أفضل في وطنٍ حرٍّ وسعيدٍ للأجيال القادمة وأن يكونوا جيلاً ثائرًا وراء جيل إلى وصول الهدف المنشود، كذلك وضع الرّفاق هدفًا ووصيّةً لجميع الأجيال القادمة، الحفاظ على الحزب الشّيوعي بمنجزاته وانجازاته، أن تحرسه وتحميه وتضعه برمشِ العين وبقلب نابضٍ حياة وحيويّة مُنَبِّهًا كما جاء في الحديث الشّريف "ولكن إيّاكم أن ترسلوا عليها نيرانًا فتحرقوها".

وأجمل ما أُنهي به هذه اليوميّات أمنية طلبها بَرْهُوم البُلْشُفِيّ، أن

يكون ختامها مسكًا وعنبرًا معطّرًا برياحين الكرمل وياسمين الشّام وقندول الجليل وشُجّيرة المُثلّث وصُبّار النّقب، أن نُحيّي ذكرى شُهداء حزبنا وشعبنا، وجميع الرّفاق الّذين قضَوْا إلى جنّات الخلد، ونطلب العمر المديد بالصّحّة والعافية والشّبابيّة والعقل السّليم والعطاء الدّائم للرّفاق الّذين ما زالوا يحملون الرّاية الحمراء مرفرفةً عاليًا أبدَ الدّهر، راية المنجل والشّاكوش ولم يتغيّروا ولم يتبدّلوا ولم يتركوا ساحة الكفاح ولو للحظةٍ ولنُنشِد معًا نشيد الأمميّة:

هبّوا ضحايا الاضطهاد ضحايا جوع الاضطرار
بركان الفكر في اتّقاد وهذا آخر انفجار
هبّوا نمحو كلّ ما مرّ هبّوا حطّموا القيود
وابنوا كونًا جديدًا حرًا وكونوا انتم الوجود
بجموع قويّة هبّوا لاح الظّفر
غدُ الاميّة سيشمل البشر

بقي أن أذكر أنّ منطقة حيفا للحزب الشّيوعي قامت بتكريم الرّفاق القُدامى على شرف انعقاد المؤتمر الخامس والعشرين للحزب، وعلى شرف يوم الأرض بذكراه الثّلاثين، ومن بين الرّفاق الّذين كُرِّموا كان الرّفيق إبراهيم تركي (أبو خالد) حيث قام بتكريمه سكرتير منطقة حيفا للحزب الشّيوعي د. عصام زين الدّين.

إبراهيم تركي
وعروسه سعدى تركي

صورة للرفاق في بُستان الشّيوعيّة في حيّ وادي النّسناس من اليمين إلى اليسار:
محمّد أبو الرُّبّ، سالم جُبران، محمود درويش، محمّد خاصّ، متيّا نصّار، علي عاشور، أحمد خطيب، يوسف صبّاغ.

طيّب الذّكر الرّفيق توفيق زيّاد والرفيق رئيس بلدية طمرة عادل أبو الهيجاء، أبو سلام أمام ضريح الشّاعر الشّعبيّ الفلسطينيّ نوح إبراهيم.

صّورة للرفاق في إحدى المظاهرات من اليمين الى اليسار: طيّبا الذّكر باسم جبران وآرنا مير خميس، والرفيقات وردة شومر حبيب، هنيّة شومر معمّر، طيّبة الذّكر لطفية شومر ولوريس ديب.

جوقة "الطّليعة" وفرقة "رون" خلال إحيائهما ذكرى النّصر على النّازيّة في غابة "الجيش الأحمر" في جبال القدس. فقد كانوا بعد أنْ يُصدروا تصاريح السّفر، يُسافرون إلى يافة القُدس ليناموا هناك في نادي الحزب في الحيّ العجميّ ويتدرّبون على الإنشاد سويّةً مع فرقة "رون" وفي الصّباح الباكر يتوجّهون نحو غابة الجيش الأحمر الواقعة على مشارف القدس قرب قرية أبو غوش.

الرّفيقات من "جوقة الطّليعة" في بستان الشيوعية، في حيّ وادي النّسناس خلال وصولهن من اليمين إلى اليسار: سلمى شومر، إخلاص ديب، عفاف ديب، هناء خوري ووردة شومر.

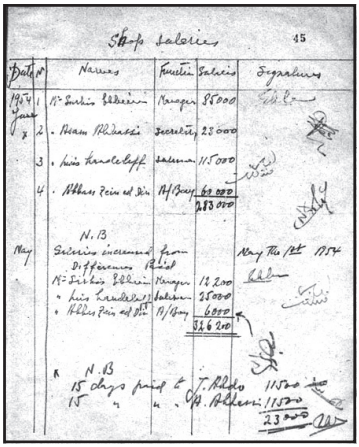

Shop Salaries 45

Date	N°	Names	Function	Salaries	Signatures
1954	1	M. Sarkis Ghkeian	Manager	88000	
Jan.	2	" Adam Abdalski	Secretary	28000	
	3	" Louis Handelsoff	Salesman	115000	
	4	" Abbas Reim el Din	A/Boy	52000	
				283000	
		N.B.			
May		Salaries increased from			May 1st 1954
		Differences Relief			
		M. Sarkis Ghkeian	Manager	12200	
		" Louis Handelsoff	Salesman	25000	
		" Abbas Reim el Din	A/Boy	6000	
				326 20	
		N.B			
		15 days paid to	J. Abdo	11500	
		15 " "	A. Adem	11500	
				23000	

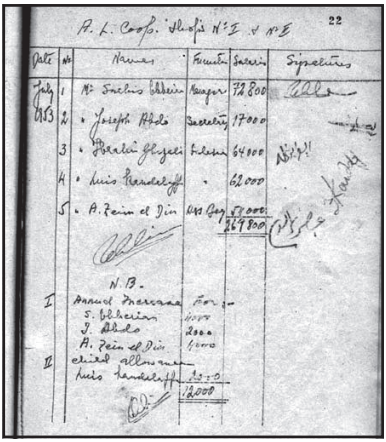

A. L. Coops. Shops N°I & N°E 22

Date	N°	Names	Function	Salaries	Signatures
July	1	M. Sarkis Ghkeian	Manager	72800	
1953	2	" Joseph Abdo	Secretary	17000	
	3	" Ibrahim Ghajeli	Salesman	64400	
	4	" Louis Handelsoff	"	62000	
	5	" A. Reim el Din	A/A Boy	57000	
				269800	
		N.B.			
I		Annual increase for			
		S. Ghkeian	Manager	1000	
		J. Abdo	Secretary	2000	
		A. Reim el Din	A/A Boy	1000	
II		extra allowance			
		Louis Handelsoff	Salesman	12000	

عيّنة من سجلات حسابات مطعم وبقالة قوت الكادحين وتظهر هناك اسماء الرفاق: سركيس أبريان، عصام العبّاسي، لويس قندلفت، عبّاس زين الدّين، يوسف عبده وإبراهيم أبو غزالة.

الصّورة للرّفاق والأصدقاء قرب قوت الكادحين في شارع الخوري من اليمين إلى اليسار مُقرفصين: طيّبا الذّكر سمير فرح (أبو جعفر)، صبحي ديبي، رؤوف شاما، بطرس تركي. من اليمين إلى اليسار وقوفًا: أديب شرّش، فؤاد المعلّم (عودة) طيّبا الذّكر ديب عابدي وسميح عرّام، إدغار كركبي، إبراهيم عاقلة، رفيق والفرد شحادة.

الصّورة في إحدى بساتين حيفا من اليمين إلى اليسار مقرفصين: طيّب الذّكر شوقي زريق، والرفاق فيكتور رزق، عبّاس زين الدّين يحتضن ابنه عصام وإبراهيم تركي يحتضن ابنته وضحى. وفي الصّورة وقوفًا من اليمين إلى اليسار: طيّبة الذّكر عفيفة زين الدّين (أم عصام) وسعدى تركي (أم خالد) أمدّ الله بعمر الموجودين بالصّحّة والعافية والعقل السّليم. كما هو معروف من حلقة سابقة أنّ الرفيق فيكتور رزق (أبو جرير) كان إشبين وعرّاب الرفيق إبراهيم تركي في زواجه.

الصورة في بقالة قوت الكادحين في شارع الخوري *24* من اليمين إلى اليسار:
طيّب الذّكر فاروق صبحي بولس، عبّاس زين الدّين أطال الله بعمره، وطيّب الذّكر طوني نقّارة.

صورة للرّفاق عند مدخل البقالة من اليمين إلى اليسار: طيّب الذّكر لُطفي عريدي (من عمّال الآي بي سي)، عبّاس زين الدّين، طيّب الذّكر ديب عابدي وبولس حناني.

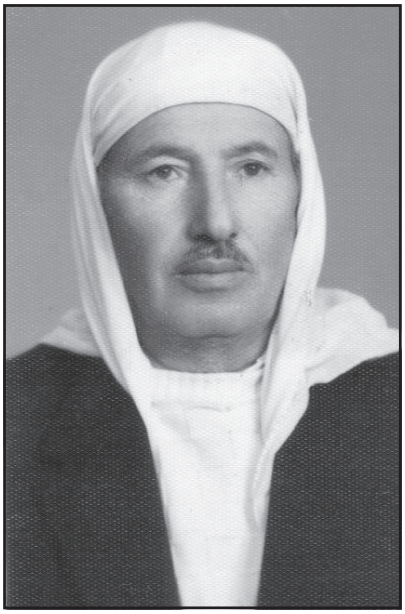

الصديق أبو صبري الزّعطوط

من مظاهرات الحزب الشيوعي في الناصرة

من مظاهرات الحزب الشيوعي في الناصرة

الدكتور عصام زين الدين يكرّم الرّفيق إبراهيم تركي (أبو خالد)